حديث رمضان

تفسير جامع لخمس سور من القرآن الكريم، وهي:
الفرقان - ولقمان - والحجرات - والحديد - والعصر

للأستاذ الإمام

فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الأزهر الشريف - الأسبق

تقديم

أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد

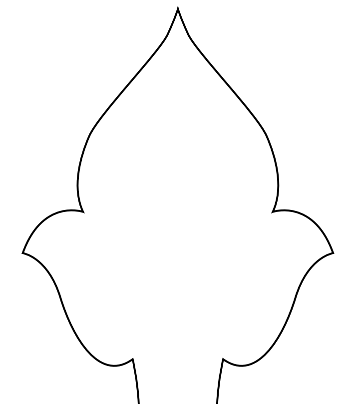
رئيس جامعة الأزهر سابقًا

هدية رمضان ١٤٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



تقديم

لمحات من حياة الإمام الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغي

ميلاد عالم ورحلة علم:

وُلِد الشيخ محمد مصطفى محمد عبد المنعم المراغي في ٧ ربيع الآخر ١٢٩٨هـ/ الموافق ٩ مارس ١٨٨١م بالمراغة مركز سوهاج، وكان أبوه ممن يلمون ببعض العلوم الدينية؛ مما جعله موضع احترام أهل المراغة ومرجعهم في المسائل الدينية، فعمل هذا الأب على أن ينشئ أولاده نشأة علمية، فتربى خمسةٌ من أبنائه في الأزهر، وذهب أحدهم إلى دار العلوم، وكان الابن الكبير وهو الشيخ محمد مصطفى المراغي متوقد الذكاء، حفظ القرآن الكريم في كُتَّاب القرية، ثم التحق بالأزهر في الحادية عشرة من عمره، تلقى العلم على يد الأكابر كالشيخ محمد عبده؛ فقد استمع إلى دروسه في التفسير والتوحيد والبلاغة، وظل وثيق الصلة به سائرًا على نهجه في التجديد والإصلاح. وكان مثابرًا في طلب العلم وتحصيله حتى حصوله على الشهادة العالمية عام ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م، وكان ترتيبه الأول على زملائه، ورُشِّح للتدريس في الأزهر، وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا، وهي سن مبكرة بالنسبة لعلماء الأزهر في ذلك الوقت.

أهم الوظائف التي تولاها:

وعقب تخرجه في الأزهر عمل بالتدريس لفترة ستة أشهر، ثم تولى قضاء دنقلة في السودان في عام ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م، ورشحه لهذا المنصب الشيخ محمد عبده، وبعد فترة قليلة نُقِل قاضيًا

لمديرية الخرطوم في عـام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، غير أنه اختلف مع قاضي القضاة والسـكرتير القضائي حول كيفية اختيار المفتشـين بالمحاكم الشـرعية بالسودان فآثر أن يسـتقيل ويعود إلى مصر في العام نفسه.

وفـي ٢ شـعبان ١٣٢٥هــ / ٩ سـبتمبر ١٩٠٧م عُيِّن المراغي مفتشًـا للـدروس الدينيـة بديوان الأوقـاف، وفي الوقـت ذاته عمل بالتدريس بالأزهر، فذاع صيته وشاع اسمه بين الطلبة الذين أقبلوا إلى حلقته، وفي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م طلب وكيل حكومة السودان (سلاطين باشا) إلى الشيخ المراغي أن يعود قاضيًا للقضاة، فصدر قـرار من خديوي مصـر بتعيينه قاضيًا لقضاة السـودان في ٤ رجب ١٣٢٦هـ / أول أغسطس ١٩٠٨م، وظل بالسودان حتى قامت ثورة ١٩١٩م فعـاد إلى مصر، وأخذ في التدرج بالوظائف القضائية حتى عُيِّن رئيسًا للمحكمة الشرعية العُليا في ديسمبر١٩٢٣م، وفي هذه المناصب قام بعدَّة إصلاحات مهمة في إصلاح المحاكم الشرعية.

نال الشـيخ المراغي عضوية هيئة كبار العلماء في ٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٢٤م، وفي عام ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م عُيِّن شيخًا للأزهر، وهو في السابعة والأربعين من عمره، ووَجَّه همَّته إلى إصلاحه، وقد شكَّل فور توليه مشيخة الأزهر لجانًا لإعادة النظر في قوانين الأزهر، ومناهج الدراسـة فيه. كما قدَّم قانونًا لإصلاح وضع الأزهر للملك فؤاد الذي كان مشـرفًا على شـئون الأزهر آنذاك، إلا أن بعـض حاشـية الملك فؤاد أوعـزوا له بأن الشـيخ المراغي يريد اسـتقلال الأزهـر عن القصر، فرفض الملك فـؤاد القانون، فما كان من الشـيخ المراغي إلا أن وضع القانـون الخاص بإصلاح الأزهر في ظرف، واستقالته من مشيخة الأزهر في ظرف آخر، وطلب من الملك

فؤاد حرية الاختيار، فقبل الملك فؤاد الاستقالة عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م، لكن الإمام لم يخلد إلى الراحة، فقد قضى أكثر من خمس سنوات عاكفًا في بيته على البحث والدراسة ومراجعة آراء المصلحين من قبلُ، وبخاصّة آراء أستاذه الإمام (محمد عبده)، كما راجع الأسس التي وضعها للإصلاح وما تَمّ تحقيقُه منها، وما ينبغي تعديله، وذلك في ضوء دراساته العميقة للنهوض بالأزهر.

وفي ٢٤ المحرم ١٣٥٤هـ / ٢٧ أبريل ١٩٣٥م، عاد الشيخ المراغي لمشيخة الأزهر بعد المظاهرات الكبيرة التي قام بها طلاب الأزهر وعلماؤه للمطالبة بعودة الإمام المراغي للأزهر لتحقيق ما نادى به من إصلاح، وقد استمر إضراب العلماء والطلاب عن الدراسة أكثر من ١٤ شهرًا مما أجبر الملك فؤاد على إعادة المراغي شيخًا للأزهر مرة أخرى.

وكان شديد الحب للأزهر الشريف؛ ففي إحدى السنوات اشتد عليه المرض، وكانت فترة الامتحانات بالأزهر بدأت، فأصر الإمام المراغي على الذهاب يوميا لمكتبه في الأزهر، حيث كانت تُطبع أوراق الامتحانات، وبرَّر ذلك بقوله: «إنني أتقبل تعرُّض صحتي للخطر، وهو أمر أهون عليَّ من أن تتعرض سُمعة الأزهر للخطر».

مناهضته الاحتلال ومواقفه الشجاعة:

أ- في ثورة ١٩١٩م قاد في السودان المظاهرات المناوئة للاحتلال البريطاني، وقد أدرك الاحتلال خطر هذا الرجل الأزهري عليه، وكان من دلائل ذلك أن كتب حاكم السودان: «إن الشيخ المراغي من دهاة العالم»، كما كتبت صحيفة التايمز البريطانية: «أبعدوا هذا الرجل فإنه أخطر على بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب». وقد تَزَعَّم الإمام المراغي حملةً لجمع تبرعات في مصر

لصالح المجاهدين في السودان الذين يقاومون الاحتلال البريطاني، وبلغت حصيلة التبرعات ستة آلاف جنيه مصري آنذاك تُقدَّر اليوم بحوالي ستة ملايين جنيه مصري.

ب ـ وقد عارض بصوت جريء اشتراك مصر في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، وقال مقولته المشهورة: «نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وإن المعسكرين المتحاربين لا يَمُتَّان لمصر بأي صلة». وقد أحدثت كلمة الإمام المراغي ضجة كبيرة هزَّت الحكومة المصرية، وأقلقت الحكومة الإنجليزية، والتي طلبت من الحكومة المصرية إصدار بيان حول موقف الإمام المراغي باعتباره شيخ الأزهر من هذه الحرب ومن الحكومة الإنجليزية. فما كان من رئيس الوزراء المصري في ذلك الوقت حسين سري باشا إلا أن قام بالاتصال بالشيخ المراغي، وخاطبه بلهجةٍ حادَّة طالبًا منه أن يحيطه علمًا بأي شيء يريد أن يقوله فيما بعدُ حتى لا يتسبب في إحراج الحكومة المصرية، وبعد فترة هدأت العاصفة لأن الإنجليز أرادوا أن يتفادوا الصراع مع الشيخ المراغي حتى لا يثير الرأي العام في مصر ضد القوات البريطانية المحتلة في مصر.

ج ـ ومن المواقف التاريخية المشرّفة للإمام المراغي رفضه الاستجابة لطلب الملك فاروق ملك مصر، والخاص بإصدار فتوى تُحرِّم زواج الأميرة فريدة طليقته من أي شخص آخر بعد طلاقها، فرفض الشيخ المراغي الاستجابة لطلب الملك فاروق، فأرسل الملك فاروق بعض حاشيته لكي يلحوا عليه لإصدار هذه الفتوى، فرفض الشيخ المراغي، ولمَّا اشتد عليه المرض دخل مستشفى المواساة بالإسكندرية، وهناك زاره الملك فاروق للاطمئنان عليه

من ناحية، وللإلحاح عليه مرة أخرى لإصدار الفتوى الخاصة بتحريم زواج الملكة فريدة، فصاح الإمام المراغي برغم ما كان يعانيه من شدة الألم بسبب المرض قائلا : «أما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم بالزواج فلا أملكه، إن المراغي لا يستطيع أن يحرم ما أحل الله».

الشيخ المراغي مصلحا:

أ ـ قاد حركة الإصلاح في القضاء الشرعي في السودان وفي مصر، وكان إصلاح القضاء هَمَّه الأكبر لتحقيق العدل والإصلاح بين الناس، وكان الشيخ يتبع أسلوبًا جديدًا مع المتقاضين، حيث كان يحاول أن يوفق بينهما دون اللجوء للتقاضي، وكان يرى أن القاضي يستمد أحكامه وقدراته من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ولا سُلطان لأحد عليه سوى الله ثم ضميره حتى يستطيع أن يؤدي رسالته في العدالة بين الناس دون الخوف من أحد، حتى ولو كان الحاكم أو السلطان. وكان الإمام المراغي يرى أن إصلاح القانون هو إصلاح لنصف القضاء؛ لذلك شكل لجنةً برئاسته تكون مهمتها إعداد قانون يكون هو الركيزة الأساسية للأحوال الشخصية في مصر، وقد شكَّل لجنةً لتنظيم الأحوال الشخصية برئاسته، ووجَّهها إلى عدم التقيُّد بمذهب الإمام أبي حنيفة إذا وجدت في غيره ما يناسب المصلحة العامة للمجتمع، وكان مما قاله لأعضاء اللجنة: «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، فالشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد في تفريعاتها وأحكامها في القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا في كل وقت».

ب ـ ومن إصلاحاته أيضا أنه نادى بفتح باب الاجتهاد، ودعا إلى توحيد المذاهب قدر الإمكان، كما حاول التقريب بين المذاهب الإسلامية.

جـ - قام بتطوير المناهج الدراسية على النحو الذي يجمع فيه بين الأصالة والتجديد، وقام بإعادة صياغة مضمون المؤلفات القديمة بأسلوب معاصر ومنهج حديث.

د - أنشأ (قسم الوعظ والإرشاد) بالجامع الأزهر عام ١٩٢٨م.

هـ - كما شكّل لجنةً للفتوى سنة ١٩٣٥م مقرها الجامع الأزهر، تتكون من كبار العلماء، تكون مهمتها الرد على الأسئلة الدينية التي تتلقاها من الأفراد والهيئات.

و - غيَّر اسم هيئة كبار العلماء إلى (جماعة كبار العلماء) وعدَّل في اختصاصاتها حتى تتحقق الفائدة المرجوة منها. وهي تتكون من ثلاثين عضوًا، واشترط الإمام المراغي في عضويتها أن يكون العضو من العلماء الذين لهم إسهام في الثقافة الدينية، وأن يقدم رسالة علمية تتسم بالجرأة والابتكار.

ز - زاد في عهده إرسال البعثات الأزهرية في أوربا، كما وجَّه الأزهر في عهده عِدَّة بعثات لدراسة أحوال المسلمين في الأقطار النائية، وأنشأ قبيلَ وفاته مُراقبةً خاصة للبعوث والثقافة الإسلامية.

حـ - الشيخ المراغي أول مَن سعى لإنشاء جامعة الأزهر؛ ففي عهده صدر المرسوم الملكي بإنشاء ثلاث كليات تكون مدة الدراسة فيها أربع سنوات، تتخصص إحداها في علوم العربية، وهي كلية اللغة العربية، والثانية في علوم الشريعة وهي كلية الشريعة والقانون، والثالثة في علوم أصول الدين وهي كلية أصول الدين، وقد دعا الإمام المراغي إلى ضرورة العمل على تحرير مناهج الأزهر من التقليد والتلقين في التدريس، والأخذ بالأساليب الحديثة، والتوسُّع في الاجتهاد. ودعا الطلاب إلى دراسة اللغات الأجنبية ليكونوا أكثر قدرةً على الفهم.

من مؤلفاته: الأولياء والمحجورون: وهو بحث فقهي لا يزال مخطوطًا بمكتبة الأزهر، تناول فيه الشيخ المراغي الحَجْر على السفهاء، وقد نال الشيخ المراغي بهذا البحث عضوية هيئة كبار العلماء، وتفسير جزء تبارك، ووجوب ترجمة القرآن الكريم، ورسالة في الزمالة الإنسانية ـ وبحوث في التشريع الإسلامي في الزواج، وتُوفِّي وهو يكتب كتابًا في تفسير سورة القدر في المستشفى ليلقيه في ليلة القدر في رمضان، وغير ذلك من الدروس وقوانين إصلاح الأزهر.

وفاته:

ظل -رحمه الله- يعمل على النهوض بالأزهر مجاهدًا في سبيل إصلاحه وتنظيمه واستقلاله حتى وافته المنية في ١٤ رمضان ١٣٦٤هـ/ ٢٢ أغسطس ١٩٤٥م(*).

هذا الكتاب:

هذا الكتاب دروس رمضانية ألقاها الإمام الأكبر المراغي، وقد اصطفى في هذه الدروس سورًا من الذِّكر الحكيم يفسرها، وهي من السور التي تبني في المسلم الخُلُق القويم الذي إن اتبعه ساد الدنيا كلها، والأخلاق العظيمة هي الوصف الرباني لأكرم نبي في الآية من سورة القلم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

لذا اصطفى الشيخ السور التي تتضمن الحديث المبسوط عن الخلق البانية للمجتمع في دوائره المتنامية بدءًا من الأسرةِ وانتهاءً بالمجتمع الإنساني كله، فترى في الكتاب شرحًا مبسوطًا لسورة

(*) أفدنا في رصد هذه اللمحات من عدة مراجع ومواقع على الشبكة العنكبوتية: من ذلك الأزهر شيوخه وأعلامه د/ عبد الله سلامة، والأزهر في ألف عام، د محمد خفاجي، ومشروع ذاكرة الأزهر الشريف.

الفرقان، وهي السورة الفارقة بين الحق والباطل، والمنتهية بالحديث المُسهب عن عباد الرحمن، التي إن اتبعها المسلم حظي بالنَّسب الشريف المليحة به هذه الإضافة، ثم سورة القلم وما تتضمنه من جليل الوصايا بدءًا من علاقة العبد بخالقه، ثم علاقاته بالمخلوقين، ثم سورة الأدب العالي الغالي مع النبي الكريم ﷺ سورة الحجرات، ثم ختم بما يختم به المؤمنون سورة العصر الجامعة لكل خير، والشيخ في اصطفائه هذه السور كان يهدف إلى بناء مجتمع فاضل نقي تقي، وإني أسأل الله أن ينفع القارئ بما في هذا الكتاب الذي صنعه راسخٌ في العلم أحب دينه وأزهره ووطنه، فكان من عون الله له ما كان من إصلاح سديد ورأي رشيد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ.د / إبراهيم صلاح الهدهد
رئيس جامعة الأزهر - سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الأستاذ الإمام في تقديم تفسير القرآن الذي اشتمل عليه هذا الكتاب

لله الحمد في الأولى والآخرة، وعلى خاتم أنبيائه أفضل صلواته.

ها هو ذا تفسير لبعض سور الذكر الحكيم، يسره الله لي كتابة وإلقاء في شهر رمضان، وما هو إلا ثمرات من غراس أسلافنا الأولين، وزهرات من رياضهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وكل ما أرجوه أن يضعه الله سبحانه في كفة الحسنات من ميزان الأعمال، وأن يجعله لي ضياء ونورًا يسعى بين يدي، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.

والله حسبنا ونعم الوكيل.

فضيلة الشيخ: محمد مصطفى المراغي

مقدمة

بقلم معالي أحمد مرتضى المراغي بك

ترددت كثيرًا حين طلبت إليّ دار الهلال أن أكتب مقدمة هذه الدروس الدينية التي كان يلقيها المغفور له الشيخ المراغي في حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر وكان يستمع إليها في المذياع ملايين المسلمين.

ذلك لأن الشيخ المراغي أبي وعسير أن يقدم الابن للناس أباه. ولكني وجدت أن للمراغي أبناء آخرين لا يدركهم الحصر، هم تلاميذه ومريدوه، وأن صلة الروح بينه وبينهم لا تقل عن صلة الرحم بينه وبيني، وأن الكثيرين منهم يودون لو أتيح لهم أن يكتبوا عن الشيخ شيئًا كثيرًا. فقلت: ما عليّ لو لبيت دعوة الدار، فأدليت بدلوي، وساهمت بقدر ما يسمح به قلمي القاصر عن إدراك نبل الغاية، وبياني العاجز عن أن يركض في ميدان من كان بيانه السحر الحلال. وإني لأذكر كيف كان والدي يُحَضّر دروسه، وكيف كان يقف عند آيات الله وقفة الخاشع في المحراب، وكيف كان يَسْبَح في بحور التفكير في خلوة ينصرف فيها إلى معالجة تفهم الآيات ليُخرج للناس ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم. وكانت العلة تنهك قواه، والداء يأخذ عليه مسالك التنفس. ولكنه لم يكن يبالي بالألم ولا بتباريحه، ويمضي في تحضير دروسه صافي النفس موصولًا بأسباب الله. ثم ينطلق إلى المسجد في سمت العابد، ويتلو آي الله وتفسيرها متمكنًا بأمر ربه، لا تعروه لعثمة ولا تردد، من غير أن يستعين بما يتلوه مكتوبًا لأنه كان يلقيه من كل قلبه وجوارحه.

وكان الفقيد، رحمه الله، يشعر في أواخر أيامه وهو يلقي دروسه بدنو الأجل، ولكنه لم يتهيب أن يمضي في طريقه. وكان إذا

اشـتدت عليه العلة في المسـجد صمت لحظة ثـم توجه إلى الله في سـره وسـأله أن يعينه على إتمام الدرس . وكم من مرة عاودته العلة ، وكـم من مرة توجه فيها إلى الله أن ينجيه منها ، وقد ختم حياته وفي يده القلم يفسـر كتاب الله ، وصعدت أنفاسه إلى بارئها بعد أن أنهي تفسير جزء (تبارك) بدقائق معدودات .

وأعـود إلى الموضـوع فأقول : إن تلك الـدروس كانت غريبة في ملابسـاتها ، كمـا كانت غريبـة في نهجهـا وأسـلوبها ، فما حفظ تاريـخ العصور القريبـة أن جلس ملك من الملوك فـي احتفال عام ، وفي مسـجد من المسـاجد ، إلى شيخ من شـيوخ الدين يستمع إلى تفسـير كتاب الله ، وما اسـتمع الناس إلى عالم يفسر كتاب الله على النحو الذي كان يفسر به الشيخ المراغي ، فقد كان تفسيره مشرق الديباجة ، رقيق الأسـلوب ، واضح الدلالة ، قريب الغرض ، واستطاع أن يجمـع فيـه بين معاني كتـاب الله وحقائق الحيـاة ، ويربط بينها وبيـن القضايـا العلميـة ، مبرزًا قوة القـرآن وأسـرار عظمته في هذا الميـدان ، كما اسـتطاع أن يجلي ما فيه من أسـرار الأحـكام وألوان العبر والعظات التي هي أهم مقاصد القرآن .

لقد حشـيت أكثر كتب تفاسـير القرآن بكثير من قضايا العلوم ومصطلحاتها الفنية وبالقصـص المصنوع ، فزاحمت معاني القرآن وأبعدتهـا من الأذهـان وخرجت عن مقصـده في العظـة والاعتبار ، وكان لتفسـير القرآن عند أكثر النـاس -حتى بعض الخواص- تلك الصـورة المعقدة مـن المصطلحـات والقواعد الغريبـة . فلما ألقى الشـيخ دروسه استنارت أفكار السـامعين وأدركوا أن تفسير القرآن شيء آخر أوضح وأقرب منالاً مما في كتب التفاسير ، ذلك أن الشيخ قد حرص على أن يكون التفسـير بيانًا لكتاب الله وكشـفًا لأسراره ،

بالعبارة التي تليق بجماله وجلاله، وبالقدر الذي يتضح به المعنى من غير حشو أو إغراب.

وبهذا كانت دروس الشيخ في التفسير جديدة وغريبة، يجد فيها العالم طلبته، ويقضي منها المتعلم لبانته. وصادفت قبولًا وتقديرًا لا في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي عامة، وكان المسلمون يرصدون أوقاتها ليستمعوا إليها ويستمتعوا بما في القرآن من جلال وجمال.

وفي الحق أن هذه الدروس لم تكن دروسًا في التفسير فحسب، بل كانت دروسًا في العقائد والأحكام والأخلاق والآداب واللغة والاجتماع، تتنوع موضوعاتها حسب تنوع الآيات، وكانت أحيانًا دروسًا في السياسة تمليها الأحوال والمناسبات. والسياسة العادلة النزيهة عملا وعلمًا عنصر من عناصر الدين الإسلامي، يأثم المسلم إن فرط فيه.

ولا أغلو إذا قلت إن تلك الدروس في قوتها ووضوحها وتهذيبها وترتيبها، كانت صورة صحيحة لعقل الشيخ وفكره وصفاء نفسه وقوة إيمانه. ولا زالت تلك الدروس بين يدي علماء الأزهر وغيرهم مثار الإعجاب والتقدير، ومثالا ناطقًا بمكانة الشيخ في فهم القرآن والغوص في أسراره والقدرة على فهمه وتفهيمه، وهي بينهم نماذج راقية لما ينبغي أن يكون عليه تفسير القرآن.

ويقول الأستاذ الشيخ شلتوت عضو جماعة كبار العلماء في بيان تلك الدروس وآثارها يومئذ: «ولقد كانت عاملا قويًا في توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الطاهر إلى الجانب الديني، ولفت أنظارهم إلى ما في كتاب الله من تشريع حكيم وأدب جم كريم وإرشاد قيم مفيد، فحببت إليهم الدين وزينته في قلوبهم، وهرعوا

إليــه يتعرفــون حكمه وأحكامه ويلتمســون بها حيــاة طيبة ونهضة قوية أساسـها الدين والخلق الكريم، وكانت هذه السـنة أيضًا مثار هدى وإرشــاد يلقي أشـعته الوضاءة على عقول المشتغلين بتفسير القـرآن فيضيء لهم الطريق الذي ينبغي أن يسـلكوه في فهم كتاب الله واستخلاص آدابه وأحكامه».

***

وكلمـا أهـل رمضـان طالعتنـا ذكرى الشـيخ وذكرى دروسـه، فهاجت نفوسـنا وعاودها الشوق والحنين وافتقدنا مكانه ثم انثنينا نلتمس العزاء ممن له البقاء، ونسأله للشيخ حسن الجزاء.

وقـد كانـت هذه الدروس سـنة حسـنة اسـتنها حضـرة صاحب الجلالة الملك فاروق فأيقظ بها في نفوس الشباب العاطفة الدينية، ولفـت أنظارهـم إلى هـدى القرآن. فنسـأله مخلصيـن ضارعين أن يجزيـه بما وعد به أصحاب السـنن النافعة، وأن يعـزه بالدين ويعز الديـن به، وأن يقـر عينه بولي عهده، وأن يجعـل مصر بفضله قبلة الإسلام والمسلمين.

وإنه لتقدير كريم، ووفـاء جميل، وفكرة موفقة، أن تصدر (دار الهـلال) في يوم ذكرى الشـيخ فـي رمضان، بعض دروسـه الدينية لينتفع المسـلمون في شـهر القرآن ببعض تفسير القرآن، وإن ذلك لعمـل يرضي روح الشـيخ، ويرضي محبيه وعامة المسـلمين، وهو لذلك جدير بالشكر والتقدير[1].

أحمد مرتضى المراغي

---

(١) هذه المقدمة نشرت مع النشر الأول للكتاب في دار الهلال.

آيات من سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾

(الفرقان: ١، ٢)

البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، ومنه

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾

(مريم: ٣١)

أي موضعا للخيرات الإلهية. ويقال تبارك أيضا بمعنى تعالى. وقد صعد أعرابي على رابية وأطل على أصحابه وقال: تباركت عليكم، أي تعاليت عليكم.

والفرقان: هو الفرق، لكنه أبلغ منه، ويستعمل أكثر في الفرق بين الحق والباطل.

والنذير: المنذر. والإنذار: إخبار فيه تخويف، ضد التبشير فإنه إخبار فيه سرور.

والملك: التصرف التام والضبط مع القهر والاستيلاء.

والتقدير: جعل الأشياء على مقدار مخصوص وصفة خاصة حسبما اقتضته الحكمة الإلهية. وفعل الله سبحانه على ضربين: ضرب أوجده دفعة واحدة بجميع أجزائه، وضرب جعل أصوله موجودة لكن أجزاءه كلها أو بعضها غير موجودة فعلا، بل هي موجودة بالقوة، وقدره على وجه لا يتأتى فيه غيره، كما قدر في نواة الزيتونة أن تنبت زيتونة لا غير، ونواة التمر أن تنبت نخلة لا غير، وهكذا مما قدر له سننا مطردة لا تتحول.

ومعني الآيات : تعالى الله سبحانه وارتفع عن جميع الموجودات ، واتصف بصفات الكمال كلها ، وتنزه عن سمات النقص وعن مشابهة الخلق ، وتكاثر خيره وبره ، وجوده وفيضه . ومن أكرم الخير وأعمه فائدة إنزال القرآن ، فهو كمال للنفس الإنسانية التي هي أشرف أجزاء الإنسان ، وهو مصباح الهداية إلى المعارف الحقة ، وطريق السعادة لمن عمل به ، فيه من العقائد الصحيحة ما يضع الإنسان موضعه اللائق به في الوجود ، موضع العزة وعدم الخضوع إلا لمستحق الخضوع ، موضع الخلافة عن الله سبحانه في الأرض ، وفيه من أصول الأخلاق الفاضلة ما هو لائق بالإنسان ، وبوساطته بين الملأ الأعلى وهذا العالم ، وفيه معارف صحيحة دقيقة يكشف الناس عنها على تعاقب الأيام ، وفيه من النظم ما قامت الأدلة والتجارب على أنها خير ما يقي الإنسان من التفكك والانحطاط ، ويحفظ روابط المحبة بين أفراد هذا النوع وجماعاته . وليس أدل على مكانة القرآن عند الله ومكانته في نفسه من الاقتصار على ذكر إنزاله في مقام المنة ومقام النعمة بعد وصف الله سبحانه نفسه بالتعالي وكثرة البر والخير . ونحو هذا فاتحة سورة الكهف :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾

(الكهف : ١- ٤)

والفرق بينهما أنه اقتصر في فاتحة هذه السورة على ذكر الإنذار لحكمة سأذكرها بعد وصف الله نبيه محمدا ﷺ بصفة العبودية ، وهي أشرف صفات المخلوقين ، وبين أنه نذير العالمين ، فهو رسول

الله إلى الخلق أجمعين منذ بعث إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. وسمى القرآن فرقانا ؛ لأنه فرّق بين الحق والباطل، وفرّق بين المحققين والمبطلين.

وفي القرآن نذر وبشارات، لكن الله لم يذكر في هذه الآيات البشارات ؛ لأنه سيعرض للكافرين والمشركين الذين نسبوا إلى ذاته ما لا يجوز في حق ذاته، ونسبوا إلى القرآن ما هو غير لائق بالقرآن، ونسبوا إلى محمد ما هو بريء منه، واللائق بهؤلاء هو الإنذار. وصف الله نفسه بالتعالي وكثرة الخير، وبأن له الغلبة والقهر والاستيلاء على السماوات والأرض وما فيهن، وبأنه لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك، وبأنه خالق كل شيء وموجد كل شيء بقدر، على نحو تترتب عليه آثاره الخاصة به، طبقا للسنن الإلهية المرسومة.

يكاد الاعتراف بالخالق يكون فطريا في غير حاجة إلى استدلال، لكن القرآن لم يتركه للفطرة، فحرك في نفوس الناس طلب النظر والاعتبار، وأشار إلى ما في السماوات من نظام بديع محكم، وإلى اختلاف الليل والنهار، وحركات السيارات والأرض، وغير ذلك من دقائق الكون وأسراره، مما لا يدع عند العقل مجالا للقول بأنه نشأ عن المصادفة والاتفاق، أو أنه نشأ عن موجد غير شامل القدرة والعلم، وغير واسع الحكمة، بل يضطره بعد البحث إلى الجزم بأن قوة مدبرة حكيمة محيطة بالأشياء إحاطة تامة هي التي نظمت هذا الكون، وخلقت هذه السنن، وأن اتباع إشارات القرآن وأوامره تجعل من الخير كله للمسلم أن يَسبح بعقله في هذا الوجود، وأن يتطلب المعرفة لإدراك كنه السماوات والأرض والإحاطة بهذا النظام الباهر. وهذه المعارف هي التي تزيد إيمان المؤمن، وتطمئن قلبه

اطمئنانا يقارب اطمئنان إبراهيم -عليه السلام- حيث قال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(البقرة: ٢٦٠)

وقد قال بعض العلماء من قبل: إن معرفة تشريح الأفلاك وتشريح الإنسان هي الدلائل القاطعة على سعة علم الله وحكمته. وقد كان هذا في وقت كان تشريح الأفلاك فيه وتشريح الإنسان طفلا في مهده، فكيف يكون الحال الآن؟

ولقد جنى بعض العلماء على المسلمين في الماضي جناية بعيدة الأثر في حياتهم، جناية صرف الناس عن الكون وأسراره، فهذا لا يتفق وأغراض القرآن، فضلا عن أن هذه الدراسات رَفَعَ التعمقُ فيها أمما من أمم العالم، ومكن لها في الأرض فاستولت على أمم تفوقها عددا وثروة، واستوت على عروش العز والسلطان، وإهمال هذه الدراسات سلب العزة من أمم كانت خليقة بالعز، بتاريخها ودينها وثروتها. وإني أنصح قومي وأهل ملتي بتوجيه الجهود إلى الدراسات العلمية، واستثمار ما أودعه الخالق جل شأنه في معادن الأرض ونباتها وحيوانها، وما أودعه في الهواء والضوء وغير ذلك من الموجودات، فذلك خير مما نحن فيه دينا ودنيا.

مالك السماوات والأرض واجب الوجود لذاته، لا يقبل الانفصال والاتصال، وليس له أجزاء، ولا يمكن أن تكون حقيقته متعددة، وهو الحقيق بالعبادة والتوجه إليه، وكل ما عداه محتاج إليه مفتقر في كل لحظة إلى إشراق وجوده وفيض جوده، فلا يمكن أن يتخذ

ولدا، ولا يمكن أن يكون له شريك في الخلق والإيجاد والتدبير، ولا يجوز في نظر العقل أن يتوجه أحد إلى شيء من مخلوقاته، فهي كلها عابدة غير معبودة، وكلها مسبحة منزهة له، ولا يجوز أن يعبد شيء منها وأن ينزه ويسبح، وقد علمنا الله سبحانه أيضا أن نتوجه إليه ونقول:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(الفاتحة: ٥)

وأفهمنا أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنه معنا أينما كنا، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، وقال:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

(غافر: ٦٠)

فهذه العقيدة البسيطة الخالصة الحقة: عقيدة التوحيد وعدم الاعتداد بأحد سوى الله في طلب كشف الضر ودفع السوء، وفي طلب الهداية في ظلمات البر والبحر، وفي طلب إنزال الغيث، هي مقتضى العقل ومقتضى الشرع، ومع ذلك فهي ترفع قدر المسلم عند نفسه وعند غيره، وهي موضع العز وموطن الكرامة، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

نعود بعد ذلك إلى قوله سبحانه:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾

(الفرقان: ٢)

فنقول: كل ما كان مرسوما في العلم الإلهي الأزلي هو القدر، وإيجاد الله سبحانه للأشياء وإبرازها إلى عالم الظهور مطابقة لما رسم في العلم هو التقدير. فالتقدير هو التسوية وخلق الأشياء من

مـواد خاصة على صور خاصة بحيـث يترتب عليها آثارها ولا يمكن أن يترتب عليها غيرها من الآثار. وعلى هذا فمعنى قوله سبحانه:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾

أحدث كل شـيء فقدره وسـوّاه في ذلك الإحـداث تقديرا بديعا موافقـا للحكمـة وللنظام السـابق فـي العلم ولكل جـزء من أجزاء العالم غاية، وكل جزء يؤدي وظيفة خاصة به، ومجموع هذه الأجزاء كلهـا، وهي مرتبطة بعضها ببعض، يؤدي الغاية العامة الكلية لخلق العالم. نظير ذلك: السـاعة، والغرض منها تحديد الوقت وضبطه، لهـا أجزاء ولكل جزء عمـل، وكل جزء يصنع من المادة المناسـبة له التي يمكن بواسـطتها أداء ذلك العمـل، وجميع الأجزاء مرتبط بعضهـا ببعض على نحو خاص يؤدي إلى الغايـة العامة وهي تحديد الوقت

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾
(الفرقان: ٣)

عجيـب حال هذا الإنسـان! يبلغ من السـمو والمعرفة ما يجعله متصـلا بالملأ الأعلى وهو على الأرض لم يفارقها، ويبلغ به السـمو ألا يـرى لأحـد مـن الخلق حقا فـي التوجـه إليه، فلا يطلـب إلا من الخالـق، ولا يعبـد إلا الخالـق، ولا يعتز بعز أحد إلا بعـزة الخالق، ويبلـغ مـن الدناءة والحطـة إلى أن يعبد حجرا أو شـجرا أو إنسـانا مثله، أو حيوانا من أجهل الحيوانات وأقلها معرفة، ويعبد ما يصنعه بيده، وما يكسـره الصبي إذا عبث به، فهو يعبد مخلوقا غير خالق، وموجـودا لا يملك ضـرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حيـاة، ولا بعثا بعد المـوت. ومن مـن المعبودات سـواء أكانوا من الجـن أم من الإنس

ينــزل الغيث ، وينبت الشــجر ، ويدفع الصواعــق ، ويمنع الأرض أن تميــد ؟ ومــن يدفع الأمــراض ، ويبرئ الأســقام ، ويهب الشــفاء ؟ لا أحــد ســوى الله يملك هــذا مجتمعــا أو مفرقا . مع وضــوح هذا عند العقــل فقد اتخذ الناس من قبل ، واتخذوا اليــوم ، معبودات مخلوقة لا تملك لنفســها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا ، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشــورا ، والواجب في نظر العقل عند أهل الفطر الســليمة ، وقد أيــد القرآن ذلك بالآيات ، أن يكون المعبود خالقا غير مخلوق ، وأن يملك دفع الضر وجلب النفع ، وأن يملك الإحياء والإماتة ، ويملك النشور والبعث بعد الموت .

وحق على المســلم أن يتدبر هــذا وأن يراعيه إذا كان ممن يؤمن بالقــرآن ، ويحذر ما فيــه من التقريع والتوبيخ وينبغي أن نشــير إلى شيء يجب التنبه له : وهو أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا هذه الآلهة على أنها شريكة لله في الخلق ، أو شريكة له في صفاته ، من الوجوب والقدم وما أشبه ذلك ، كلا ! فإن الله سبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الزخرف : ٩ ، ١٠)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر : ٣٨)

فهــو يلومهم ويقرعهم على أنهم دعوا غيره وتوجهوا إلى غيره ،

ويقول لهم: هـؤلاء الذين تتوجهون إليهـم وتدعونهم، لا يملكون كشـف الضر، ولا يملكون إنـزال الرحمة ولا دفعهـا، فليس هناك أيـة فائدة من التوجه إليهم؛ لأنه هو الـذي يملك دفع الضر ويملك الرحمة وفي آية أخرى نعى عليهم اتخاذهم شفعاء، فقال:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(الزمر: ٤٣، ٤٤)

ثم وجه إليهم تأنيبا أشد من ذلك فقال:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(الزمر: ٤٥)

فأثبت أن الذي يدعو مع الله شيئا آخر ويذكر معه شيئا آخر، ولا يفرده بالتوجه ولا يفرده بالذكر، شخص لا يؤمن بالآخرة

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(الفرقان: ٤ - ٦)

الإفـك: الكـذب والبهتان. وافتـراه: اختلقه ونسـبه إلى غيره. والظلم: وضع الشـيء فـي غير موضعه. والـزور: الكذب المنمق. وأسـاطير الأولـين: الأحاديث والأخبـار التي سـطرها المتقدمون.

واكتتبهـا : كتبها ، أي طلب كتابتها . والبكـرة : الغدوة . والأصيل : العشي .

بين الله سـبحانه مزاعم المشـركين في الشريك من قبل ، ثم بين فـي هذه الآيات مزاعمهم في القرآن ، فقـد زعموا أن محمدا اختلقه ونسـبه إلى الله سـبحانه ، وأعانه على ذلك أقوام كانوا يعرفون أخبار الأمم الماضية ويكتبونها له بطلبه ثم يملونها عليه لأنه لم يكن يقرأ ويكتـب ، ثم يصوغها هو في هذا الأسـلوب العربـي البليغ ، وكانوا يفعلـون ذلك دائما في الغدوة قبل انتشـار الناس ، وفي العشـي بعد سـكونهم إلى مأواهم أولئك الذين زعموا هذا فـي القرآن ، ظلموه ، وظلموا النبي ﷺ وقد علمنا من قبل أن الظلم وضع الشـيء في غير موضعـه ، ومع هذا فهم مـزورون كاذبون ، نمقوا هـذا الكذب على هـذه الطريقة التي قد يقبلها بعض الجهلاء ، وقد بين الله بطلان هذه المزاعم بقوله :

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(الفرقان : ٦)

وقـد أبنت من قبـل أن الله بعـد أن وصف نفسـه بالتعالي وكثرة الخيـر ، لـم يذكر من نعمـه إلا القـرآن ، ثم بعد ذلك وصف نفسـه بالتفـرد في الخلـق والعزة والقهر ، وكل هذا لإشـعار النفوس بعظم منزلة القرآن ، وللتمهيد إلى هذا الرد البديع المحكم .

إنه يقـول لهم : إذا تدبرتـم وأنصفتم ، ولم يحـل العناد والهوى بينكـم وبيـن إدراك الدليل ، علمتم ما في القـرآن من مزايا وصفات ومعـان لا يقـدر عليهـا أحد إلا الله الذي يعلم السـر في السـماوات والأرض ، ولا يقدر عليها الخلق مجتمعين :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

ولا ريب في أن هذا موضع يمكن أن يكتفي فيه بهذا القدر، وأن يطول فتوضع فيه الكتب، وما وضع العلماء علوم البلاغة ولا أطالوا فيها وسهروا وأجهدوا أنفسهم إلا مناصرة لفكرة القول بأن الإعجاز كان بالأسلوب، ولا شبهة في أن الأسلوب قهر العرب فصحاءهم وبلغاءهم. ولا ريب في أن سر الإعجاز في النظم لا يدرك إلا بالذوق. والعالم بأسرار العربية يدرك كما يدرك العربي ذلك الإعجاز. أما القواعد الموضوعة فلا توصل إلى إدراك الإعجاز ما لم يصاحب علمها ذلك الذوق الذي أشرت إليه ولا شبهة في أن خصائص الأسلوب في القرآن في حاجة إلى علم الذي يعلم السر في السماوات والأرض، ولا شك في أن للقرآن تأثيرا في النفوس لم يبلغه من قبل شعر ولا نثر، ولا يدري الإنسان من أين جاء، ويقف أمامه موقف العاجز المذعن، منتهيا إلى أنه من عند الذي يعلم السر في السماوات والأرض، هذا إلى ما فيه من نظم للجماعة الإنسانية روعيت فيها مصالحها مراعاة لا يقدر عليها إلا من يعلم السر في السماوات والأرض. وفيه إشارات إلى معارف دقيقة في الكون وأسراره كشف العلماء عن بعضها، ولم يكن من الميسور لأحد زمن نزول القرآن إدراكها. وقد دلت هذه المعارف على صدق قوله سبحانه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت: ٥٣)

وقد دلت التجارب على أن المسلمين سعدوا أيام أن عملوا بالقرآن واهتدوا بهديه، وشقوا أيام أن أعرضوا عنه وتركوه. وليس

حفظه وتلاوته وتجويده هو العمل به، وإنما العمل به هو فهمه، وإدراك الأغراض العامة منه، وملاحظة أن تكون الأعمال جميعها في هذه الدائرة: دائرة الحق والعدل، والعلم والرشد.

وقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

معناه أن صفة الرحمة وصفة المغفرة هما السبب في إنزال القرآن. أما أن صفة الرحمة سبب، فالأمر فيه ظاهر، لأن الرحمة تقتضي الإحسان، وأكمل الإحسان الهداية، والمعرفة الحقة، والنظم الصالحة. وأما أن المغفرة سبب، فإن القرآن من شأنه أن يرد الضالين إلى الهدى ويردهم إلى الله سبحانه فيقلعوا عن المعاصي، وذلك تحقيق لآثار صفة المغفرة. وقال المفسرون في ذلك: إن الافتراء على الله سبحانه باتخاذ الشريك والولد، والافتراء على القرآن بأنه مختلق، كل ذلك يستحق تعجيل العقوبة، لكن الله سبحانه صرف العقاب إلى أجله، وهو وإن كان لا يهمل فإنه يمهل، وهذا الإمهال سببه أنه غفور رحيم.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾

(الفرقان: ٧- ١٠)

ومعنى الآيات: أي شيء أصاب هذا الذي يدعي أنه رسول حتى أقدم على هذه الدعوى الجريئة التي لا يصح أن يدعيها مثله؟ فهو واحد منا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق طلبًا للرزق كما نمشي، فليس له فضل علينا ولا مزية يستأهل بها هذه الرسالة، ولو أنه كان صادقا في دعواه لأيده الله سبحانه بملك ينزل إليه من السماء يشاركه في الإنذار ويحمل معه عبء الدعوة والتبليغ، ولو أنه كان صادقًا في دعواه لأغناه الله عن طلب الرزق، وأنزل إليه كنزًا من السماء أو ملكه بستانًا يأكل منه، وما هذه الدعوى على هذه الحالة إلا بسبب مس الشيطان ومخالطته له في عقله، فهو رجل مسحور.

وشبيه بهذا ما جاء في سورة الإسراء:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

(الإسراء: ٩٠- ٩٣)

وقد بين الله سبحانه سبب هذه المزاعم والأباطيل جميعها على وجه الإجمال بقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

يعني أن ضلالهم وإمعانهم في الضلال بحيث لا يقدرون على التخلص منه ولا يستطيعون معه طريقًا إلى الهدى هو سبب هذه

الأباطيل جميعها، فهم ضلوا الطريق المستقيم في فهم الأمور، وفي الاستدلال، فلم يعرفوا ما يصح أن يطلب ويقترح، وما لا يصح أن يطلب ويقترح، ولم يعرفوا ما ينبغي أن يكون عليه الأنبياء والهداة، وما لا ينبغي أن يكونوا عليه، وما يجب أن يتصف به الأنبياء ويعطوه من عند الله، وما لا يليق بهم ولا يصح أن يمنحوه، ولم يعرفوا حقيقة الملائكة وما هو لائق بهم. وقد سمى الله هذه الأباطيل أمثالاً لغرابتها وغرابة صدورها، والعرب تطلق الأمثال على الأحوال العجيبة والقصص الغريبة النادرة، كما تطلقه على القول السائر فيه غرابة.

ونعود إلى تفصيل الرد على هؤلاء المشركين:

أما حديث الطعام والمشي في الأسواق، فقد رد الله سبحانه عليهم بقوله في هذه السورة:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾

(الفرقان: ٢٠)

فبين لهم أن محمدًا في ذلك ليس بدعًا من الرسل، وأن إخوانه كلهم من الأنبياء، ومنهم من كان المشركون يعترفون بنبوته، كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. وأما حديث الكنز يلقى من السماء، والبستان يأكل منه، فقد رد الله سبحانه عليهم بقوله:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾(الفرقان: ١٠)

ومعناه أن هذه النعم الدنيوية وغيرها من النعم جميعًا بيد الله سبحانه، فهو القادر على كل شيء، إن شاء أعطاها وإن شاء منعها، وهو في حالي الإعطاء والمنع حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، والنبوة

والدعوة إلى الله سبحانه في حاجة إلى إقامة الأدلة وثبوت المعجزات، وقد تم ذلك كله على يد محمد ﷺ، وفي حاجة إلى صفات الحزم والعزم وغير ذلك مما هو واجب للدعاة والهداة، وكل ذلك أعطاه الله نبيه، والنبي قدوة للخلق، وينبغي أن يكون موضع سلوى البائسين والمعوزين، وليس أكثر الناس الذين يدعون إلى الدين، وليس أكثر الذين اهتدوا بهديه وتابعوه هم الأغنياء أصحاب الجنات والكنوز، بل أكثرهم هم الفقراء الذين لم يعطوا من الرزق إلا القليل، فإذا كان النبي فقيرًا تعزى به الفقراء، وإذا لم يكن له كنزًا ولا جنة يأكل منها تعزى به من ليس لهم كنوز ولا جنات وقنعوا بالرزق، وقالوا: هذا حبيب الله ومصطفاه لرسالته فقير مثلنا، ولو كانت الدنيا محببة إلى الله لوفّر له الخير فيها، وقال الأغنياء أيضًا: لو كان المال محببًا وقيمته عند الله عظيمة لما ضن الله به على أكرم عباده وأحب الخلق إليه. هذا كله يعزي الفقراء ويدعو الأغنياء إلى البذل وإلى عون المحتاجين.

لو شاء الله لأعطاه كنوزًا وقصورًا وجنات تجري من تحتها الأنهار، لكنه لم يشأ لهذه الحكم السابقة، وقد أعطاه في الدنيا ما هو أحسن: أعطاه العلم والمعرفة، وعزة النفس، والتقوى، وأعطاه الفضائل النفسية جميعها، وادخر له في الآخرة القصور والجنات، وما هو أعز وأعلى وأغلى من الجنات، وهو رضوان الله سبحانه، ورضوان من الله أكبر.

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

بقـي الحديث عن نزول الملك وعن السـحر : أمـا نزول الملك فقد رد الله عليهم في سورة الأنعام بقوله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

(الأنعام : ٩)

ومعناه لو أننا أنزلنا على الناس ملكًا فإنهم لا يقدرون على رؤيته ومشاهدته بالحالة التي هو عليها ، ولذلك كان من الواجب إذا أنزلنا ملـكًا أن نجعلـه على صورة رجل ، ولو أننا جعلنـاه على صورة رجل لضاعت فائدة إنزاله ، لأنهم إذا رأوه رجلًا قالوا هذا بشـر ، ولا طريق لهم إلى علم أنه ملك .

الجهل بطبائع الأشـياء يسـهل على الناس اقتـراح غير الممكن منهـا ، والجهـل بحقيقة الملائكة يسـهل على النـاس اقتراح إنزال الملـك ، والجهـل بمـا ينبغـي أن يكون عليـه الأنبياء يسـهل على الناس اقتراح الكنوز والجنات ، والجهل بما عليه الأنبياء من السمو الروحـي الـذي يمكنهم من تلقـي الوحي يجعل الناس يسـتبعدون تلقي الوحي ونزول الوحي على الأنبياء .

وكيـف يكـون محمد مسـحورًا وقد عـرف قبل النبـوة بالأمانة والفطنة ورجحان العقل وحسن التدبير ، وقد ساس أمته بعد الرسالة ، ودبـر أمور الحروب والصلح ، ودبر علاقـات أمته بغيرها من الأمم ، وروابـط أمته بعضها ببعض ، أحسـن سياسـة وأحسـن تدبير ، ودبر تبليغ الرسـالة على نظام بديع وخطط محكمة ، حتى ظفر بالشرك ، وحقق الله له النصر .

صفات عباد الرحمن

قال الله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

(الفرقان : ٦٣ - ٧٧)

جرى الحديث في الآيات السابقة حول المشركين والكافرين ، ومزاعمهم وأحوالهم ، وما أعده الله لهم من العذاب : اتخذوا من دون

الله آلهة عبدوها لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا. قالوا عن القرآن: افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا. قالوا ذلك مع اشتمال القرآن على أسرار الكون وعلوم الغيب التي لا يعلمها إلا الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض. قالوا عن محمد ﷺ: ما نرى إلا رجلا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولم يكن هناك رسول قبله إلا كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. قالوا: لم لا يكون له كنز أو جنة يأكل منها؟ كأن الرسول يجب أن يكون من أغنياء الدنيا وله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. قالوا: إنه رجل مسحور، وهو الذي دبر أمر تبليغ الرسالة على أحسن وجه، وهو الذي ساس أمته في دينها ودنياها وحروبها وفتوحها. قالوا ذلك وغيره مما أوحى به الحمق والجهل، وكذبوا بالساعة، واستكبروا وعتوا عتوًا كبيرًا، حتى إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفورا. قالوا ذلك مع وضوح الدلالات على وجود الله سبحانه، وعلى أنه المتصف بجميع الصفات، ومنها صفة الرحمن، ومع قيام الأدلة على صدق الرسول ﷺ في جميع ما جاء به، ومنها إخباره بالساعة وأنها حق لا ريب فيها.

وفي هذه الآيات استأنف الله سبحانه الحديث عن خلص المؤمنين من عباده، فذكر أحوالهم في الدنيا والآخرة، ووصفهم بصفات كثيرة استحقوا بها وصف العبودية والإضافة إلى اسمه الرحمن، فدل ذلك على أن صفة العبودية أشرف صفات المخلوقين.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾

قرئ عباد بالكسر جمع عبد، وعباد بالضم جمع عابد، وهو على الأول من العبودية، وعلى الثاني من العبادة. والعبودية إظهار التذلل، والعبادة غاية التذلل. والعبد قسمان: مخلص لله تعالى، ومنه

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾

(ص: ٤١)

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾

(الحجر: ٤٢)

ومعتكف على خدمة الدنيا، وإياه قصد ﷺ بقوله: «تعس عبد الدرهم! تعس عبد الدينار!» [مسند البزار].

والهون: الرفق واللين. ومنه الحديث «أحبب حبيبك هونًا ما»[سنن الترمذي]

والجهل: السفه وسوء الأدب.

من صفات عباد الرحمن ترك الإيذاء، واحتمال الأذى، حيث لا يترتب على ذلك تهاون بالدين، أو بالعرض، أو مذلة لنفس المؤمن.

أشار الله سبحانه إلى الأول بقوله: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾: أي مشيًا هينًا برفق لا تكلف فيه ولا تصنع، فهو لا يتكلف المشي الهين، ولا يتكلف ضرب الأرض بقدمه أشرا وبطرا، ولا التبختر خيلاء، بل يرسل نفسه على طبيعتها، لا يقصد الكبر والعلو، ولا يقصد بالرفق في المشي الرياء، ثم يعيث في الأرض فسادا. صفته في ذلك قوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: ٨٦). المؤمن الذي هذا شأنه مؤمن يسلم الناس منه، ومن أذاه، ولا يريد في الأرض علوًا ولا فسادًا.

وأشار سبحانه إلى الثاني بقوله:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾

أي سدادا من القول بلفظ (سلاما) وبغيره مما يدل على المتاركة وعدم المقابلة بالمثل، فهو قول لا خير فيه ولا شر، أو قالوا هذا اللفظ نفسه على قصد المتاركة لا على قصد التحية، كما قال إبراهيم -عليه السلام- لأبيه:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ (مريم: ٤٧). فالمؤمن حليم وإن جهل عليه. وترك المقابلة للسفه مستحسن أدبًا وشرعًا ومروءة، وهو أسلم للعرض، على أن لا يترتب عليه مذلة وثلم[٢] للعرض والدين، أما إذا ترتب هذا فقد ندب المؤمن للدفاع. فالإعراض الممدوح إنما هو في مقابلة سوء أدب الجاهل الذي ينتهي أمره بالإعراض والصفح.

ومن لطيف ما يروى أن إبراهيم بن المهدي، وكان منحرفًا على عليّ رضي الله عنه، رأى عليًا في النوم تقدم إلى قنطرة يعبرها، فقال له: إنما تدعي هذا الأمر بامراءة ونحن أحق به منك. فقال عليّ لإبراهيم: سلامًا سلامًا!. وقص إبراهيم الرؤيا على المأمون، وقال: ما رأيت لعلي بلاغة في الجواب كما يذكر عنه. فقال له المأمون: أجابك أبلغ إجابة، اقرأ قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾

فخزي إبراهيم واستحيى.

ومن كلام الحسن -رضي الله عنه- وفيه نزعة صوفية: «المؤمنون قوم ذلل، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما

---

(٢) الثلمة: الخلل في الحائط وغيره، يقال: في السيف ثلم وفي الإناء ثلمٌ: إذا انكسر من شفته شيء. (الصحاح (ثمم) ٥/١٨٨١)

لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الـذي أذهب عنا الحزن، والله ما حزنهم حـزن الدنيا، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة! أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسـه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم ومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه».

المؤمنـون كما وصفهم الحسـن: رحماء بينهـم، ولكن إذا دعا داعـي الحق، وتعـرض الدين أو تعرضـت الأوطان للهـوان والذل، كانـوا أشـداء، وكانـوا الليوث تحمـي العرين، يظهر بأسـهم عند الحاجة، وليس بينهم بأس، هكذا يجب أن يكونوا، فأين هم؟!

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٤- ٦٦)

البيتوتة: أن يدركك الليل نمت أو لم تنم، وهي خلاف الظلول، ولذلـك صح أن تقول: بـات فلان قلقًا. وقيامًا: جمـع قائم كصيام جمع صائم. وغراما: معناه: موجعًا ملحًا لازمًا.

من صفات عباد الرحمن إحياء الليل كله أو بعضه بالصلاة، ومن أحياه هكذا قيل: بات سـاجدًا قائمًا. وقال بعض العلماء: من صلى الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء صح أن يوصف بهذا. ولا يلزم في عبودية عباد الرحمن إحياء الليل كله أو أكثره بالعبادة، فقد كان ﷺ ينام ويقوم، إلا ما فرض عليه بقوله تعالى:

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾

(المزمل: ٢- ٤)

وكان يصوم ويفطر، وقال: «هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[صحيح البخاري]. وقد جعل الله الليل لباسا، والنهار معاشا، وكلف عباده السعي للحصول على الرزق، والإنفاق على من يعوله المؤمن واجب، والصدقات مندوب إليها، فكيف يمكن السعي مع قيام الليل كله؟ وكيف يكون قيامه لازما في وصف عباد الرحمن؟

ومن صفات عباد الرحمن أنهم مع اجتهادهم في العبادة وإحياء الليل، وجلون حذرون خوف العقاب، يبتهلون إلى الله سبحانه دائمًا في طلب صرفه عنهم وبعدهم عنه، يذكرون أن عذاب جهنم موجع مهلك وملح دائم، وأنها لهذا بئست المكان الذي ينزل فيه، وبئست الموضع للإقامة!

والمستقر: ملاحظ فيه معنى القرار. والمقام: ملاحظ فيه معنى الإقامة، وهما في المعنى واحد لا فرق بينهما، فهو من قبيل قول الشاعر:

وألفى قولها كذبًا ومينا

والمين هو الكذب. أو يقال: من شأن العذاب في الآخرة أنه مضرة لا نفع فيها، وأشير إليه بقوله:

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

ومن شأنه اللزوم، وأشير إليه بقوله:

﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾

واللزوم كما يكون في الكفار يلازمهم العذاب دائمًا، يكون في العصاة يلازمهم العذاب مدة بقائهم في النار. ولا وجه لقولهم: إن اللزوم يختص بالكفار.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾

إذا عـرف القـوام : وهـو الوسـط والحـد الفاصل بين الإسـراف والتقتيـر ، عرف الإسـراف والتقتير ، فإن الإسـراف تجـاوز الحد ، والتقتير التقصير عن الحد . وقد سـمى حد الاعتدال قوامًا لاستقامة الطرفين حوله واعتدالهما . ونظير القوام من الاسـتقامة : السواء من الاستواء . وليس من اليسير تحديد القوام في كل الأمور ، وقد يسهل في بعضها على وجه ما . مثلاً : يمكن معرفة الجوع والشبع ، والظمأ والري ، فيكون الأكل عند الجوع والكف عنه عند الشبع ، والشرب عند العطش والكف عنه عند الري ، قواما . فمن فعل ذلك عد داخلا فـي دائرة القوام من حيث الكمية المتناولـة . لكن ما هو حد القوام في نوع الطعـام ، ونوع اللباس ، ونوع الصدقات ، وفي غير ذلك مما هو موضع لإنفاق المال ؟

بالرجـوع إلـى قواعد الدين العامة ، وما استرشـد بـه العلماء في النفقـة على الأقارب ، يـرى أن ذلك متروك إلى العرف ، وإلى تحديد الذوق العام ، والعرف العام عند طبقات المعتدلين ، فعمل المعتدلين في كل طبقة من الطبقات هو القياس الذي يسـمى القوام . وطبقات النـاس مختلفة في اليسـار والإعسـار ، وفي الشـرف والجـاه ، وفي الحسب والنسب ، والله سبحانه يقول :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

(الطلاق : ٧)

وما يعد إسـرافًا عنـد طبقة يعد بخلا وتقتيـرًا عند طبقة أخرى ، وقد قال الله سبحانه لنبيه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩)

والنــاس في كل زمــان يفرقون بين الإســراف والتقتير ، ويعرفون ذلك بالإضافة إلى كل طبقة وإلى كل فرد ، والمراد من الناس هنا هم العقلاء الذين لا يرون المال معبودًا ، ولا يرونه شيئًا لا قيمة له يرمى به ذات اليمين وذات اليســار ، بل الذيــن يعرفون حق نعمة الله منه ، ويعرفون للمروءة حقها ، وللدين حقه ، وللنفس حقها ، ولله حقه .

ولا بد من الرجوع إلى هدي القرآن وإلى آياته ليتضح هذا البحث :

قال الله سبحانه :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

(الأعراف : ٣١ ، ٣٢)

طلــب الله ســبحانه التزين للمســاجد حســبما يعرفــه الناس في عاداتهم وزمانهم ، كل حســبما يقدر عليه . وروي عن الحســن « أنه ﷺ كان إذا قــام للصلاة لبس أجود ثيابه ، وكان يقول : إن الله جميل يحب الجمال » [صحيح مسلم] .

وطلب سبحانه الأكل والشرب من غير إسراف وتجاوز للحد ، بل مع التزام حدود القصد والاعتدال ، فإن الإسراف في الطعام والشراب مضر بالبدن ، والإسراف فيهما وفي غيرهما مضيعة للمال .

والنهــي عن الإســراف لا يقتصر على الطعام والشــراب ، بل يعم غيرهمــا . وفي الحديث « كلوا واشــربوا والبســوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا إسراف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » [مسند أحمد] . وعن ابن عباس : « كل ما شــئت واشــرب ما شئت والبس ما شئت إذا أخطأك اثنان : سرف أومخيلة » [صحيح البخاري] .

والمخيلة: الخيلاء والإعجاب والكبر.

وبين الله سبحانه أن الزينة في الدنيا والطيبات من الرزق، للذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويشاركهم غيرهم فيها، ولكنها في الآخرة خالصة لهم لا يشاركهم غيرهم فيها.

وفي القرآن الكريم أيضًا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾

(المائدة: ٨٧، ٨٨)

فقد نهى الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف الضار بالجسد، والإسراف الضار بالمال، وطلب عدم الاسترسال في الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما، حتى لا تكون اللذات هي الهم الأكبر من الحياة، فإن للمؤمن في الحياة قصدًا أسمى: هو العلم، والمعرفة، والعبادة، واكتناه سر الوجود، والإحسان إلى الناس، والنفع العام للجماعة. وإذا كانت اللذات مشغولًا بها إلى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها، كان ذلك صارفا عن المقاصد السامية للمؤمن. وقد أنكر الله سبحانه في الآية السابقة على من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده، فإن التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه أحد فيه.

أباح الله الطيبات وحرم الخبائث: حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وحرم المسكر وكل ضار، وحرم على الرجال الحرير المصمت الخالص أو ما كان الحرير غالبًا فيه، وحرم التشبه بغير المسلمين في اللباس، وذلك أن يلبس المؤمن ثوبًا هو شارة مختصة بطائفة غير مسلمة، ثم أباح ما عدا ذلك على شرط

القصد والاعتدال، وذلك هو الموافق للفطرة، فقد فطرت النفوس على الاستمتاع بالدنيا والطيبات من الرزق، وأعطى الإسلام بذلك البدن حقه، كما أعطى الروح حقها، وقال ﷺ: «إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم» [الزهد لابن المبارك].

طلب الله القصد والاعتدال. وفي الحديث الشريف «الاقتصاد نصف المعيشة، وحسن الخلق نصف الدين» [أخرجه الطبراني]. وفي الحديث «نعما المال الصالح للمرء الصالح، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى» [مسند أحمد]. وقال في الوصية: «الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذرهم أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس» [مسند أبي داود].

هذا هو هدي القرآن: لا يحرم الزينة والطيبات من الرزق، وينكر على من يحرم ذلك، كما تفعل بعض الأمم وبعض الملل، ولكنه يطلب القصد، فلا يجيز المباراة في الزينة واللباس والحلي والمباني وغير ذلك، تلك المباراة التي خربت بيوتًا كثيرة عامرة بسبب المغالاة في الأفراح والحفلات واقتناء أداة الزينة التي لا يقدر مقتنيها عليها، وقد كانت هذه المباراة وتلك المغالاة سببًا في خروج الثروة إلى أيدي الشياطين، وكانت سببًا في ضعف حال المسلمين.

هذا هو الهدي، لكن بعض العلماء رووا أحاديث في الزهد، منها الموضوع، ومنها الضعيف، ولا شبهة في أن بعض الخلفاء وبعض الصحابة وبعض الأئمة زهدوا وتقشفوا، وأعرضوا عن طيبات الدنيا وعن زينتها، لكن لهذا أسبابًا، منها ضيق ذات اليد قبل أن يفتح الله عليهم أبواب الرزق، ومنها مقاومة الفساد بعد أن فتح الله عليهم

أبـواب الدنيا واسـتولوا على ملك كسـرى وملك قيصـر، ووجدوا مـا لم يكونـوا يعرفون من قبل، واندفع بعضهم في الاسـتمتاع دون الوقوف عند الحد، وعند القصد، وعند القوام.

وفي الرجوع إلى الهدي المحمدي تبصرة ونور، وضياء وشـفاء. عـن ابن عبـاس: «لقد رأيـت على رسـول الله ﷺ أحسـن ما يكون مـن الحلل». وقد لبـس ﷺ الإزار والرداء، ولبـس الجبة والفروج، وهمـا ثوبان يشـبهان القباء والفرجيـة، ولبس الخميصـة المعلمة والسـاذجة، ولبس فروة مكفوفة بالسندس، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لينة، وكان له بردان أخضران وكساء أحمر، وكان يحب الحبـرة وهـي ضرب من البـرود، لكن غالب ثيابـه وثياب أصحاب نسيج القطن والصوف والكتان.

فسـنته ﷺ في اللباس أن يلبس ما تيسـر على أن لا يكون نوعه محرمًـا. وكان يحب في الطعام الحلـوى، وقد أكل الضأن والدجاج والجـزور ولحـم الحبـارى وطعـام البحـر، وأكل الشـواء والرطب والتمر، وشـرب اللبن خالصًا ومشوبًا، وشـرب نقيع التمر، وأكل القديد والدباء، والتمر بالزبد، وكان لا يشرب إلا النظيف العذب، ويحـب البارد الحلو، وكان يجلب إليه الماء العذب من مسـافة يوم أو يومين.

لم يكن ﷺ في الطعام واللباس يرد موجودًا، أو يتكلف مفقودًا، وما قرب إليه شـيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسـه فيتركه من غير تحريم، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

هـذا هدي القرآن والهـدي المحمدي في تنـاول الطيبات، فمن تركها زهدًا وتدينًا وعبادة فلا حق له، ومن أسرف في الزينة واللذات فلا حق له، ومن بخل على نفسـه وعلى غيره وعشـيرته فلا حق له،

ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان أمرهم بين ذلك قواما.

ومالك -رضي الله عنه- إمام في الدين، وإمام في التقى، لبس الدقائق، وأكل الرقاق، وجلس على الوطيء، واتخذ حاجبًا. وعابه يحيى بن زيد النوفلي، فقال له مالك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢)؟ غير أن مالكا تواضع فقال: إن ترك ذلك خير من الدخول فيه. وربما كان الترك خيرًا حتى لا يزيد الناس على مالك فيسرفوا، وهو قدوة، فيكون عمله سببًا في إسراف غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾
(الفرقان: ٦٨- ٧١)

الآثام: جزاء الإثم، مثل النكال والوبال وزنًا ومعنى. والخلود: المكث الدائم، ويستعمل في المكث الطويل.

من صفات عباد الرحمن التفكر في خلق السماوات والأرض، واستعمال العقل واحترامه فيما هو خاص بسلطانه ويمكن أن يصل إليه، فهم يستدلون بالعالم المصنوع على الخالق الصانع، وعلى وحدته ووجوبه، واختصاصه بالعبادة لاختصاصه بجميع صفات الكمال، ولذلك لا يشركون في عبادة الخالق أحدًا، حيًا أو ميتًا، في السماء أو في الأرض، لأن كل ما عداه لا يضر ولا ينفع، ولا

يحيـي ولا يميت، ولا يملك عند الله شـفاعة إلا بإذنـه، فهو وحده المعبـود، وهـو وحده المسـتعان، وهو وحده المقصـود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف السوء.

ومـن صفاتهم عدم الاعتداء علـى النفس التي حرم الله قتلها، فلا يقتلونهـا إلا بحق: من كفر بعد إسـلام، أو زنـا بعد إحصان، أو قتل نفس.

ومـن صفاتهـم المحافظة علـى العرض، فلا يقربـون ما حرم الله قربانه عليهم.

نفي الله سـبحانه عن عباد الرحمن هذه المنكرات الشنيعة، بعد أن وصفهم بالصفات السـابقة من العبـادة، والخوف من النار، ومن حـق هذه المنكرات أن يسـبق نفيها على ذكر الأوصاف السـابقة، فإن الموصوف بالأوصاف السـابقة لا يمكن أن يكون متصفًا بشيء مـن هذه المنكرات. وسـبب هذا هو التعريض بمـا كان عليه أعداء المؤمنيـن من قريش وغيرهم، كأنه بعـد أن وصف عباده بالصفات السابقة قال: والذين هم مطهرون مما أنتم عليه.

وعن ابن مسعود: قلت: «يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشـية أن يأكل معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك». [مسـند أبو داود]

بعـد أن نفى الله سـبحانه عن عباد الرحمن هـذه الموبقات، بين عقـاب مقترفها فقـال: إنه يلقى نـكالا، ويضاعف لـه العذاب يوم القيامـة، ويخلـد فيـه محتقـرًا ذليلًا، يجمـع بين العـذاب المادي والعذاب الروحي.

واسـم الإشـارة في قول الله ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ عائـد على الأمور

الثلاثة، وهي: الشرك، وقتل النفس، والزنا، كما هو الظاهر. ولا خلاف عند العلماء في مضاعفة العذاب والخلود لهؤلاء إذا فسرت مضاعفة العذاب بالتشديد فيه، أو قيل إن الكفار يعذبون على المعاصي، ويعذبون على الشرك، وأما إذا قيل إن الكفار لا يعاقبون على المعاصي فلا بد من إرادة الشدة في تفسير مضاعفة العذاب. ولا شبهة في أن العذاب على الكفر شديد. ويدل على أن اسم الإشارة مرجعه الأمور الثلاثة ما ذكر في الاستثناء من قوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فإن نقيض ذلك هو الشرك وغيره من المعاصي وهي هنا قتل النفس والزنا.

بين الله سبحانه جزاء مرتكب هذه الموبقات، ثم بين أن الذي يقلع عنها ويرجع إلى الله سبحانه، فيؤمن به، ويعبده لا يشرك معه غيره، ويعمل الصالحات، يبدل الله سيئاتهم حسنات، والله غفور رحيم.

فما معنى هذا التبديل؟ وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟

قال قوم: التبديل في الدنيا، ومعناه أنهم يوفقون إلى محاسن الأعمال، يؤمنون ولا يشركون، ويجاهدون في سبيله فيقتلون أعداءه ولا يقتلون أولياءه، ويعفون ولا يفجرون. فالتبديل تيسير للأعمال الصالحة، وتوفيق إليها.

وقال بعضهم: التبديل في الآخرة، وأحسن ما قيل فيه: إنه يضع بدل عقاب السيئة ثواب حسنة، فهو تبديل الجزاء لا تبديل الأعمال.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ مع قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ ينفي العذاب كما ينفي مضاعفة العذاب بعد التوبة.

ومعنى قول الله سبحانه : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أن من يترك المعاصي ويندم على فعلها ويدخل في العمل الصالح، فإنه بذلك يعد تائبًا إلى الله متابا مرضيًا عنده مكفرًا للخطايا ومحصلا للثواب. وقد قيل: لله أفرح بتوبة العبد من المقل الواجد، والظمآن الوارد، والعقيم الوالد.

وقد قيل: إنها نزلت لبيان أن من يتوب بعد نزولها له حكم من تاب قبل ذلك، فإن المشركين الذين كانت آية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ تعريضًا بهم، ظنوا أنها خاصة بمن آمن قبل نزولها، فنزلت هذه الآية لبيان أن حال التائبين سواء.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٢)

الزور: الباطل. وأصله تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من رآه أنه خلاف ما هو به. ومن عادة صاحب الباطل أن يزينه، فهو يزين الشرك، وينمق الكذب، ويحسن المعاصي، وحضور الزور شهوده.

واللغو: كل ما ينبغي أن يطرح ويلغى. وأصل كلمة الكريم مأخوذة من قولهم: ناقة كريمة، إذا كانت تعرض عن الحلب تكرمًا، كأنها لا تبالي بما يحلب منها لغزارة لبنها، واستعير ذلك للصفح عن الذنوب.

من صفات عباد الرحمن أن لا يحضروا باطلا، ولا يساعدوا عليه، وأن ينكروه، فهم لا يحضرون مجالس الشرك والعصيان بأنواعه، ينزهون أنفسهم عن الشر وأهله، فإن مشاهدة الباطل إعانة عليه وشركة فيه. ومن كلام عيسى: «إياكم ومجالسة الخطائين». وشهادة الزور أمام القاضي من الزور المنهي عنه. ولا يجوز أن يخص

الزور بالشـرك أو الكذب أو بالخوض في القرآن والأنبياء، بل يجب أن يكون عامًا لكل باطل.

لا يحضـرون الباطـل، وإذا مروا بـه مروا كرامًـا، معرضين عنه، منكرين إيـاه، وإذا قدروا على تغييره غيـروه. وقد يكون مر الكرام بالمجالدة بالسـيف كما إذا مر على قاطع طريق واسـتغاث به أحد، فمر الكرام إذ ذاك يكون بالنجدة ولو أدى ذلك إلى استعمال السيف.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾
(الفرقان: ٧٣)

خر: سـقط. وإذا قلـت: خر أعمى أصم، فمعناه الحرفي سـقط أعمـى أصم، ولكن العرب لا تريد ذلك من مثل هذا، بل تريد: أقبل عليهـا أعمى أصم. وإذا قلت: لم يخر على الآيات أعمى أصم، كان معنـاه: لم يقبل عليها كالأصم لا يعي، وكالأعمى لا يبصر ما فيها، مع إظهار الحرص عليها.

ونظيـر هذا التركيب من كلام العرب قولهم: سـببت فلانًا فقام يبكـي، يريـدون فظل يبكـي، ولا قيام هناك، ولعلـه أن يكون بكى قاعدًا، ونهيت فلانًا عن كذا فقعد يشـتمني، معناه فجعل يشتمني، وقد لا يكون هناك قعود. جرى هذا على ألسنتهم وفهموه.

ومعنـى الآية: أنهـم إذا ذكروا بآيـات الله أكبوا عليهـا وأقبلوا، سـامعين بـآذان واعية، مبصرين بعيون راعيـة، فليس حالهم كحال من إذا ذكر بالآيات رأيته كالأصم لا يعي، وكالأعمى لا يبصر، ومن يسـمع بـآذان واعية وعيون راعيـة يتدبر الآيـات، ويتذكر ويتعظ، ويتبصر، ويقف عند الحدود، ويرعى حق الواحد المعبود.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤)

قرة العين: هي السـرور والفرح، مصدر من قرت عينك قرة، أي فرحت وسررت، لأن الفرح يجعل العين قارة، أو لأن دمعة العين من السرور باردة.

والإمـام: الحجة المقتـدى به. ووحدت القـرة لأنها مصدر، ولا تـكاد العرب تجمـع المصادر. ووحـد الإمام لأنه ذهـب به مذهب الاسـم لا الصفـة، وإذا ذهب به هذا المذهب وحـد، ويكون معناه: حجة، تقول: هم إمام أي حجة، كما تقول: هم بينة. وقال بعضهم: إن الإمام جمع آم، كصيام في جمع صائم.

بعث رسـول الله ﷺ لأمة جاهلة، على أشد حالة بعث عليها نبي في فترة، ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق بين الحـق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى كان الرجل يرى ولده ووالده وأخاه كافرًا، وقد فتح الله قلبه للإسلام، وهو يعلم أنه إن مات قريـب له من هؤلاء دخل النـار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، لذلك كان المسلمون يطلبون من الله أن يهب لهم من ذرياتهم وزوجاتهم مـن يطيع الله ويعبده لتقر عينهم بهذا. ومن الطبيعي في النفوس أن يحب الشخص لذريته وأهله ما يحب لنفسه، وأن يتمنى أن تكـون البيئة التي هو فيها من ذريته وأزواجه بيئة صالحة. والبيئة الفاسدة تجعل العيش مريرًا، وتذهب بالفكر وتقسمه، فلا يستقيم عيش، ولا تتجه النفس اتجاهًا كاملا إلى الخيرات والعبادات والنفع العام.

من صفات عباد الرحمـن أن يطلبوا ذرية صالحة مؤمنة، وأزواجًا مؤمنات. ومن صفاتهم أن يطلبوا من الله درجات عاليات في التقوى والطاعة يشار إليها، ويقتدى بهم فيها.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٧٦ ﴾

(الفرقان: ٧٥، ٧٦)

الغرفة: العلية. وكل بناء عال فهو غرفة. وقد ذكرت الغرفة واحدة والمراد الغرفات، لدلالة الواحدة على الجنس، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سبأ: ٣٧)، وقوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ (الزمر: ٢٠) والمراد بها الدرجات العالية في الجنة.

والتحية: الدعاء بالتعمير.

والسلام: الدعاء بالسلامة.

بين الله سبحانه أنه أعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح أعمالهم هو الدرجات العالية في الجنة، وفيها تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام، فيدعون لهم بالتعمير والخلود، ويدعون لهم بالسلامة. هذه الدرجات استحقها هؤلاء بصبرهم على الطاعات، وعلى ترك الشهوات، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم، وعلى الفقر والمصائب، وغير ذلك مما يعرض للمؤمن من المكروه. وهذا دليل على أن المؤمنين يستحقون الجنة بأعمالهم. وهذا الاستحقاق بوعد الله سبحانه، وهو صاحب الفضل في وعد عباده بالجنة، وبهذا الوعد استحقت الجنة.

﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾

(الفرقان: ٧٧)

يقال: ما أعبأ بفلان، أي ما أصنع به، كأنه يستقله ويحتقره، فوجوده وعدمه سواء. وهو بمنزلة قولهم: لا وزن له عندي.

أمر الله سبحانه رسوله أن يقول للناس: إنه لا وزن لهم عنده لولا العبادة، فلولاها ما اكترث بهم، ولا يوجد معنى آخر ينظر إليه الله سبحانه في عباده سوى العبادة، لأنه قال:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

فلولا الإيمان والعبادة والتوجه إليه في الشدائد، وشكره على الإحسان، لما نظر إليهم نظرة اعتداد، وهو في غنى عن العبادة لا شبهة، وما طالبهم بها إلا لمصلحتهم ومصلحة الخلق ونظام العالم.

ثم وجه إليهم الخطاب فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾: يعني فقد خالفتم بالتكذيب حكمي، وسوف يلزمكم أثر ذلك التكذيب، فتكبون في النار. ونظير ذلك أن يقول ملك لمن استعصى عليه: من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري، فقد عصيت فسوف ترى ما أحله بك بسبب العصيان.

والخطاب موجه إلى الناس عامة، ومنهم مؤمنون عابدون، ومنهم مكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجد فيهم من العبادة بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾، وبما وجد فيهم من التكذيب بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾.

والآن نلخص أوصاف عباد الرحمن: فهم هينون لينون لا يمشون في الأرض فسادًا، وهم صابرون على الأذى لا يجهلون على من يجهل عليهم، وهم قائمون الليل في عبادة الله، قانتون وجلون، يطلبون النجاة من العذاب، وهم على العدل والقصد في أموالهم لا يسرفون ولا يقترون، ولا يعبدون غير الله سبحانه، ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها: إلا بالحق، ولا يفجرون ويعتدون على

من حرم الله، ولا يحضرون مجالس الباطل، وإذا مروا بها مروا كرامًا، وإذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها مستمعين واعين، وهم لا يحبون وسط السوء وبيئة المعصية، فهم يطلبون ذرية صالحة، وأزواجًا صالحات، وهم راغبون في الطاعة يطلبون أن يكونوا أئمة فيها يشار إليهم ويقتدى بهم.

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين أعد الله لهم غرفًا في الجنة، ودرجات عالية، تحييهم الملائكة وتسلم عليهم، ووعدهم الخلود في تلك الغرف، وهو نعم المستقر ونعم المقام.

وقد اشتملت هذه الأوصاف على ما يسمى الضروريات، وهي حفظ النفس والعرض والمال، وحفظ العقل من التدني في الرجس والإشراك والمعتقدات الفاسدة، وعلى حال العبد مع الله، وحاله مع الناس.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من عباد الرحمن في غرفات الجنات، نلقى من الملائكة تحية وسلامًا.

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(لقمان: ١- ٥)

﴿الٓمٓ﴾: هذه وأمثالها من أسماء حروف الهجاء التي ابتدأ الله بها بعض سور القرآن أسماء للسور المبتدأة بها، ولا يجوز حملها على غير ذلك، لأنها لم توضع في لغة العرب لمعان غير الحروف، والقرآن جار على لغة العرب في مفرداته ونظمه وأسلوبه، فلا يفسر بغير ما تفيده لغة العرب، فإذا لم تجعل ألقابًا وأسماء للسور لم يكن لها معنى، ومن الواجب أن يكون لكل شيء جاء في القرآن معنى.

وبعد، فمن الممكن أن يقال في سبب تسمية السور بها إنه الإشارة إلى إعجاز القرآن الذي امتاز به من سائر الكلام، وكأن الله سبحانه يقول للمعاندين: إن القرآن من جنس هذه الحروف التي تعرفونها، وليس من مادة غير معروفة، فإذا لم تستطيعوا الإتيان بمثله وأنتم الفصحاء والبلغاء، فقد وضح أنه ليس من جنس كلام البشر، وبان أنه من عند الله.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

الآية: معناها في الأصل العلامة الظاهرة، ثم أطلقت على كل قسم من الأقسام التي تتألف منها سور القرآن، والتي يفصل بعضها عن بعض بالوقف في التلاوة، وفي الكتابة ببياض أو نقط أو عدد.

والعمدة في معرفة الآيات وعددها هو التوقيف المأثور عن النبي

ﷺ وسميت هذه الأقسام آيات، لأنها دلائل على الأحكام والحكم، والمعارف الدقيقة والعقائد الحقة، ثم هي بعد ذلك دلائل أيضًا على إعجاز القرآن.

و ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: هو القرآن الكريم المعهود عند النبي ﷺ، وعند المخاطبين وقت نزول القرآن، فقد وعد ﷺ بكتاب ينزل عليه من عند الله عند مبعثه، وعرف ذلك أيضًا في الوسط الذي كان يعيش فيه، وعرف هذا من قول الله -سبحانه وتعالى-:

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥)

والحكيم هنا معناه: المشتمل على الحكمة، وهي إصابة الحق. ومتى كان القرآن مشتملا على الحكمة جاز أن يوصف بأنه حاكم لأنه يجب رد كل شيء إليه، ومن ذلك قول الله:

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢١٣)

وجاز أن يقال إنه محكم لا فساد فيه ولا خلل:

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ (فصلت: ٤٢)

ومن المعروف أن آيات هذه السورة ليست أول الآيات نزولا، وليست آخرها، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن تكون الإشارة إلى آيات هذه السورة، وأن تكون إلى التي قبلها، وأن تكون إلى جميع ذلك، وإلى ما سينزل بعد. والمعنى واضح بعد هذا، وهو أن الآيات التي تتألف منها سور القرآن فيها الحكمة، وفيها الخير والسعادة، وفيها العلم والرشاد، وفيها الدلالة إلى طريق الحق، فهي صلاح العباد في الدنيا والآخرة، ذلك لأنها أجزاء القرآن الحكيم المنزل من رب العباد لصلاح حالهم وسعادتهم.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ :

تطلـق الهداية على الدلالـة على طريق الحق، سـواء أوجد معها الوصول إلى البغية أم لم يوجد، ومن ذلك قوله سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾
(فصلت : ١٧).

وتستعمل بمعنى أخص وهو الدلالة على طريق الحق مع الوصول إليه، كما في هذه الآية، وسيتضح بعد.

والرحمـة هنا معناهـا : الإنعام والإفضال. ويقال الإحسـان على الإحسان في العقيدة، وفي العمل، وفي القول، وهو أن تكون العقيدة حقة، والعمل صالحًا خالصًا لله سبحانه، والقول سديدًا رشيدًا.

وقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل : ٩٠) يدل على أن الإحسـان فوق العدل، فالعدل أن يعطي المرء ما عليه، ويأخذ ما له. والإحسـان أن يعطي أكثـر مما عليه ويأخذ أقل مما له، ولذلك قال الله سـبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٥).

وفي الحديث الصحيح : «كان ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه رجل، فقال : مـا الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته، وبكتابه ورسـله، وتؤمن بالبعث الآخر. قال : ما الإسـلام؟ قال : أن تعبد الله لا تشـرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال : ما الإحسـان؟ قـال : أن تعبد الله كأنك تراه، فـإن لم تكن تراه فإنه يـراك. ثم أدبر الرجل، فقال : ردوه، فلم يروا شـيئًا، فقال هذا جبريل جـاء يعلم الناس دينهم». [مصنف ابن أبي شـيبة] وخير ما يفسر به كتاب الله ما صح عن رسول الله.

فهـذا هو الإحسـان في العبـادة، وهي تشـمل العقيـدة والعمل

الصالح. فإذا راعى المؤمن في كل شيء يؤديه، وفي كل شيء يدعه، أنه يرى الله أو أن الله يراه، تحقق الإخلاص في العمل لا شك، وأدى العمل على أحسن الوجوه وأكملها. وملاحظة الله سبحانه فيها ملاحظة صفاته جميعها أو أظهرها، وهي الخلق، والأمر، والتدبير، والحكم في يوم الجزاء، وتوزيع المكافأة على الأعمال. وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة ترشد إلى طلب استحضار الذات في العبادات، من ذلك قوله سبحانه:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾

(الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦)

ثم هو يذكر الناس دائمًا بأنه معهم:

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾

(الأنعام: ٣)

﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

(الحديد: ٤)

﴿ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾

(المائدة: ١٢)

وقد وعد الله المحسنين أن يوفيهم أجرهم:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾
(الكهف : ٣٠)
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾
(التوبة : ١٢٠) .

وصف الله سبحانه وتعالى آيات الكتاب الحكيم بأنها تهدي المحسنين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم، وبأنها تأخذ بيدهم إلى طريق الحق، وتشرح صدورهم، وتعينهم معونة خاصة تسهل عليهم الطاعات وترك المعاصي، وتبلغهم أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة، وتفتح لهم أبواب المعرفة والعلم، وبأنها نعمة من الله وفضل، بها صلاح الإنسان في الدنيا إن اتبعها، وفيها عزه وطمأنينته إن عمل بها واعتبر، وفي الإعراض عنها ذله وشقاؤه وكما وصف الله الآيات هنا بأنها هدى للمحسنين، وصف الكتاب في سورة أخرى بأنه هدى للمتقين، ووصفه مرة أخرى بأنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

في هذه المواضع جميعها يجب أن تفسر الهداية بأنها الدلالة الموصلة إلى المطلوب فعلا، وهي الدلالة مع المعونة الخاصة، وتيسير الطاعة، وشرح الصدور لها لكن الله سبحانه في آية أخرى وصف الكتاب بأنه هدى للناس، مثل قوله:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾
(البقرة : ١٨٥)

ومثل قوله:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : ٩)

فجعله في ذاته هاديا ومثل هذه الآيات تفسر فيها الهداية بأنها الدلالة إلى الحق، ولا يؤخذ في معناها الوصول إلى المطلوب.

والقــرآن لا شــك أنه فــي ذاتــه دال إلى طريــق الحــق، لأن آياته الخاصــة بذات الحق وصفاتــه تقرر الحق الثابت الــذي اهتدت إليه العقــول الصحيحــة مــن غير معونــة بالأديان، وســيظهر هــذا فيما بعــد عند ذكــر لقمان وحكمتــه، ولأنه يعتمد دائما في الاســتدلال علــى ما هو ظاهــر واضح ثابت في كتــاب الوجود الــذي يدل دلالة قاطعــة على الخالق وعظمته وقدرته، ولأن آياته التي اشــتملت على أصــول الأخلاق هي أكمل مــا يمكن أن يتصف به الإنســان في هذه الحياة، ولأن نظمه للجماعة الإنســانية هي النظم الحقة التي ســعد بهــا النــاس عندما عملوا بها، وما هذا الشــقاء الــذي يكتوى العالم بناره، ويعمهم شره، إلا نتيجة البعد عن الهدي الإلهي، وثمرة لهذه المذاهب الضالة التي اخترعها الملاحدة وزينوها للناس، وليس هذا الخــزي والعار الذي عليه المســلمون اليوم إلا نتيجة الإيمان ببعض الكتــاب والكفر ببعضــه، ونتيجة إغفاله وعــدم تدبره، ولذلك حق عليهم قول الله سبحانه:

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

(البقرة: ٨٥)

صــدق الله، فقــد حق الخزي فــي الحياة الدنيا عليهــم، أما جزاء الآخرة وهو أشــد العذاب فسيلاقيهم، لأن الله صادق الوعيد كما هو صادق الوعد.

القــرآن فــي ذاتــه هدى، وفــي ذاته رحمــة، لكنه لا ينتفــع به إلا مــن يقبل عليه ويؤمــن به إيمانــا كاملا ويخلص فــي عمله إخلاصا كاملا ومثله مثل نجوم الســماء: هي هادية في ذاتها لكنها لا ينتفع

بهدايتها إلا العلماء فليس العيب عيب الكتاب، لكنه عيب أهل الكتاب وقد قرأ بعض القراء هدى ورحمة بالنصب، وبعضهم هدى ورحمة بالرفع، وهما قراءتان صحيحتان لا تختلفان في المعنى.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾
(لقمان: ٤)

هذه أوصاف المحسنين، فهم الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم بالآخرة هم يوقنون، وقد سبق في بيان معنى الإحسان ما يفيد أنه أخص من الإيمان وأخص من التقوى، ونحن نعلم أن الله سبحانه وصف المؤمنين في سورة المؤمنين بأكثر من هذه الأوصاف، ووصف المتقين في أول سورة البقرة بأكثر من هذه الأوصاف، وبين صفات أهل البر بأكثر من هذا في قوله:

﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

فما هو السر في الاقتصار هنا على هذه الصفات القليلة في بيان المحسنين الذين هم أخص من المؤمنين ومن المتقين؟

الجواب: أن الله سبحانه لم يرد هنا بيان جميع صفات المحسنين، بل ذكر صفة لكل أصل من أصول الخير، وأصول الخير ثلاثة: صحة العقيدة، والإحسان إلى الجماعة البشرية، وتهذيب

النفس وتطهيرها وأكمل أمثلة تهذيب النفس الصلاة، وأكمل أمثلة الإحسان إلى الجماعة بذل المال، وفي الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء، إيمان بالله سبحانه وبالكتب المنزلة وبالرسل، فهو مثال كامل لصحة العقيدة.

إقامة الصلاة: تقويمها وتجويدها وحفظها من أن يقع فيها فساد في صورتها أو في حقيقتها أما صورتها فهي الأعمال والأقوال المعروفة وأما حقيقتها فهي الإخلاص لله سبحانه، واستشعار سلطانه وقهره.

والصلاة في الإسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية وفاتحة الكتاب إذا روعي معناها أثناء التلاوة، من أكبر العون على استحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص المبرأ من أية شائبة للشرك وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها -وهو ذلك الإخلاص الذي وصفناه- كانت جسما لا روح فيه، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب، والنهي عن الفحشاء والمنكر، والتخلص من الهلع والجزع عند النوائب، والله سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

ويقول:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾

(المعارج: ١٩- ٢٢)

والأفضل أن تفسر الزكاة هنا بإخراج المال وإنفاقه في سبيل الله، وفي سبيل إغاثة الملهوفين والبائسين، وفي سد حاجة الأفراد

والجماعات، فتشمل الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع الصدقات، وذلك لأن الله سبحانه يذكر في هذه الآية أوصاف المحسنين الذين هم أكمل من المؤمنين والمتقين.

وصفة الإحسان لا تتحقق بالاقتصار على الزكاة المفروضة وقد عمم الله في صفات أهل البر عند ذكر الإنفاق فقال:

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾

(البقرة: ١٧٧)

وأهل البر لا يزيدون على أهل الإحسان في أحوالهم والمراد بالآخرة الدار الآخرة وهي دار الجزاء والإيمان بالآخرة يشمل الإيمان بما فيها من جنة ونار وحساب وعدل في توزيع الجزاء على الأعمال.

واليقين: اعتقاد مطابق للواقع لا يقبل الزوال أو الشك ويطلق بإطلاق آخر على الاعتقاد الجازم المبني على الخبر الصادق أو على الأدلة والأمارات فهو العلم مع تحقيق الأمر وإزالة الشك، والثاني أقرب إلى اللغة من الإطلاق الأول، اليقين يملك النفس ويصرفها حتى لا تجد عنه منصرفا، وتظهر آثاره على الجوارح، وأول أثار اليقين العمل به، وأن تجد النفس مضطرة اضطرارا إلى لزومه، وطريقه النظر الصحيح وتلخيص الأدلة.

والقرآن الكريم عند تدبره وشرح الصدر به يبعث في النفوس أكمل اليقين، وفي الجوارح أعظم أثار اليقين

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(لقمان: ٥)

هؤلاء المحسنون الذين ذكرت أوصافهم هم المستقرون على

الهدى والمتمكنون منه، لأنهم أحسنوا في جميع العقائد والأعمال والأقوال، وهذبوا نفوسهم وطهروها، وملأ اليقين قلوبهم بعد تمكنهم من الأدلة وهؤلاء المحسنون هم الفائزون المفلحون في الآخرة بنعيم الله وجناته ورضوانه، وفي الدنيا بطمأنينة النفس وسعادتها والرضا بالأقدار، فهم في نعيم روحي وإن كانوا في الظاهر في الشقاء، وكل ما يصيبهم من ألم وفقر وبلاء يردونه إلى القدر، وهم راضون بالقدر فرحون، ينتظرون جزاء الله.

وقد قيل: الهدى من الله كثير، ولا يبصره إلا بصير، ونجوم السماء يبصرها البصراء، ولا يهتدي بهديها إلا العلماء.

وقد قيل أيضا: العجب كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وممن يعرف النشأة الأولى وينكر النشأة الآخرة، وممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا، وعجب ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور!

وصف الله المحسنين بأنهم على هدى من ربهم، والهدى من الله سبحانه أكمل أنواع الهداية، لأنه الهدى الذي لا خطأ فيه، وفيه الأمان من الزيغ وهناك ضروب أخر من الهداية، منها هداية الإلهام والفطرة، وهداية المشاعر والحواس، وهاتان الهدايتان تشملان أنواع الحيوان وهناك هداية العقل الذي يصحح خطأ الحواس ويعلل الأشياء ويستنبط ويقيس، وهي خاصة بالإنسان، وبها ذلل أسرار الطبيعة، وفسر كتاب الوجود.

لكن أفضل هذه الهدايات وأقواها هي هداية الدين، وهي لطف عظيم من الله سبحانه، حيث أرشده إلى ما لا يستطيع بعقله أن يدركه إدراكا صحيحا، وأزال حيرته.

وقد بينت في حديث من أحاديث السنين السابقة على وجه

التطويـل ضرورة هـذه الهداية الإلهية للنوع الإنسـاني فأكتفي الآن بهذا القدر من البيان.

وأسـأل الله أن ينفعنـا بالهـدى الإلهي، ويشـرح صدورنا بقبوله وفهمه والعمل به.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(لقمان: ٦، ٧)

بعد أن بين الله سـبحانه في الآيات السـابقة أن آيات القرآن فيها هدايـة وفيها رحمة وإنعام للمحسـنين، وبعد أن بيـن أمثلة لأصول الفضائل التي يتصف بها المحسنون، ذكر في هذه الآيات أن طائفة من الناس يتركون آيات الله ويعرضون عنها، ويسـخرون من الطريق المسـتقيم الذي هو طريق الله وسـبيله، ويقبلـون على الباطل الذي يلهـي عن الحق، ويختارونه، وإذا تليـت عليهم آيات الله ولوا عنها مسـتكبرين لا يعبئون بها ولا يرفعون رءوسـهم عند سـماعها زهدا فيها واسـتكبارا، فكأنهم لم يسـمعوها، بـل كأن في آذانهم ثقلا لا يستطيعون معه سماعها.

سـبيل الله: هو الحق الثابت في ذاتـه، الحق الذي تدركه العقول الصحيحة والفطر السـليمة، والدلائل قائمة عليه والناس متمكنون منه، وكأنه في أيديهم وملك لهم، وفضلا عن ذلك فإن الله سـبحانه لـم يترك عباده لهـذه الهداية العقليـة والإلهام الفطـري، بل أكمل نعمته وأتم رحمته، وأرسـل الرسل تترى مبشرين ومنذرين، ينبهون الغافل، ويحركون الجامـد، ويضيئون بصيرة من انطفأت أنوارهم، ويرققون شعور من غلظت مشارعهم.

مـع هـذه الهدايات جميعها فـإن من الناس مـن يتركها، ويختار الباطل ليضل عن سبيل الله.

هـؤلاء تركوا مـا بأيديهم وباعـوه، واختاروا الباطل واشـتروه، وهـم جاهلون بمـا يعود عليهم مـن الإثم والضرر، وبمـا فاتهم من السعادة والنفع، وهم جاهلون بقوانين البيع والشراء وأصول الربح في التجارة ونظير ذلك قوله سبحانه:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١٦)

الناس بعد دعوة الرسـل أقسـام: منهم من يعرف الحق ويجحده عنادا واستكبارا، ويختار الباطل ليضل عن سبيل الله.

ومنهـم مـن لم يعط الدعـوة حقها مـن النظر والعنايـة، اعتمادا علـى تقليد ما كان عليه الآباء، واسـتمراء لمـا كان عليه الناس من شـهوات، فزق من الخمر، وقينة تغني، وقصائد من الشـعر تنشد، خير من الآيات والتقيد بالحدود، وسـبيل هذا غير بعيد عن سـبيل القسم الأول...

هنـاك مقلـدون للمذاهب في العقائـد والأحـكام، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبهم ولوا عنها، وإن كانوا لا يسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها أليس هذا شراء للباطل، وبيعا للحق بغير علم؟!

هنـاك مذاهـب ابتدعـت في الديـن للضلال والإضلال، بسـبب السياسـة، وقسر مبتدعوها الآيات في التأويل ليردوها إلى مذاهبهم المبتدعة، وجاء أتباعهم فقلدوهم.

أمـا المبتدعون فهؤلاء أمرهم واضح: اشـتروا الضلالة بالهدى، وأمـا الأتباع فكان عليهـم أن ينظروا في الآيـات ويتدبروها، عملا

بقوله سبحانه:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾

(النساء: ٥٩)

فهم أيضا اشتروا الضلالة بالهدى، ولهم بعض العذر.

هناك طوائف لم تبلغها الدعوة، ومن هذه الطوائف من سمع برسالة محمد ﷺ ولم يطلع على كتابه ولم يدعه أحد إلى كتابه، هؤلاء لا تنطبق الآية عليهم.

وهناك أناس بلغتهم الدعوة، وبلغهم الكتاب، وأخذوا في النظر والاعتبار، ولم يصلوا إلى شيء بعد الجهد والإنصاف، هؤلاء أمرهم إلى الله، والرأي عندي أنه أرحم من أن يعذبهم. من الضلال ضلال بعيد: هو الضلال في العقائد، ومنه ضلال غير بعيد هو الضلال في غيرها، وأهم أنواع هذا الضلال ترك الاعتبار والاستبصار بالقرون الخالية والأمم الماضية، وترك التدبر في صنع الله، والانتفاع بما أودعه الله في ملكه لمنفعة الإنسان.

هؤلاء الذين اشتروا لهو الحديث، لهم عذاب مهين مذل مخز، وقد أمر محمد ﷺ أن يبشرهم بالعذاب الأليم، والبشارة بالعذاب جرت مجرى السخرية والتهكم لأنها لا تكون إلا بأمر سار مفرح، وكأن الله يقول: هؤلاء ليس لهم عندي شيء أبشرهم به، وإن طلبوا البشارة فبشارتهم هي العذاب الأليم.

مثل هذه الإنذارات تتحقق في الآخرة حتما بالنسبة للأفراد والأمم، أما في الدنيا فقد تتحقق في الأفراد وقد لا تتحقق لكنها بالنسبة للأمم دائمة التحقيق، ولم تنج أمة قط من عقاب الله في الدنيا إذا أعرضت عن سبيل الحق واسترسلت في الشهوات

والتاريخ شاهد صدق، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(لقمان: ٨، ٩)

جنات النعيم: هي دار الأبرار والمحسنين في النشأة الآخرة، كما أن النار دار الفجار والضالين.

نؤمن بهما كما نؤمن بالبعث والحساب والجزاء، لا نزيد في ذلك كله شيئا على ما في كتاب الله وسنة النبي التي رويت بالطريق المأمون.

والخلود: المكث الطويل، واستعمل في لغة القرآن في الدوام الأبدي، فالجنة لا تزول، وهم لا يخرجون منها.

لم يذكر الله سبحانه ما آمنوا به، ولم يذكر ما هي الصالحات فكل ذلك كان معروفا عند المخاطبين، ومعروفا الآن، وهو مبين أكمل بيان في آيات القرآن، منثور في جميع سوره.

وهذا الجزاء وعد به الله سبحانه وعدا حقا، وهو منجز وعده، ومنجز وعيده، لا يعوقه شيء عن ذلك، لأنه العزيز الغالب القاهر، لا يغلب ولا يقهر، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، ويوجد كل شيء وفقا للنظام الذي قدره طبقا لعلمه الواسع.

والعمل الصالح: عمل الشخص نفسه لا عمل غيره ومن قضايا الدين العامة:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾

(النجم: ٣٨- ٤١)

وقد قيل لنوح في ولده:

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾

(هود: ٤٦)

فلا يجوز أن يتكل أتباع الأنبياء وأتباع الأولياء وذراريهم عليهم ويلقوا ربهم بعمل غير صالح.

والجزاء يقع على الإيمان والعمل الصالح، لا على الإيمان وحده، والآيات شاهدة بذلك، والعمل الصالح يقرن دائما بالإيمان عند الوعد بالجزاء.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾

(لقمان: ١٠)

الخلق: التقدير المستقيم، وقد استعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، وسماء كل شيء أعلاه، ومجموع ما نراه فوق رءوسنا من كواكب ونجوم وسدائم هو السماوات. والعمود معروف، جمعه عَمَد وعُمُد، والرواسي: هي الجبال الثابتات في الأرض، الغائرات في الأعماق. ويقال الزوج لكل واحد من القرينين: الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، فالذكر زوج، والأنثى زوج. ويقال أيضًا لكل قرينين في الحيوانات وغيرها.

هذه الآيات وأمثالها من الآيات المتعلقة بالكون، هي التي يعتمد عليها القرآن دائمًا في الاستدلال على الخالق، وقدرته، وعلمه، وتفرده بالإيجاد، واستحقاقه للعبادة. وفي الحق أنه لا يوجد شيء غيرها يمكن أن يقنع. وإذا انحرفت الأدلة عنها أضلت وأظلمت البصائر. وكل ما في كتب الكلام والفلسفة لا يمكن أن يهتدي به

جمهور المسلمين، ونحن في شك من أن العلماء اهتدوا به.

وفد على أبي حنيفة جماعة من الدهرية، فقال لهم: «ما تقولون في خشب قطع من الأشجار بلا نجار، وتجمع فكون سفينة جرت في البحر مشحونة بالأحمال، وقد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بين ذلك كله تجري على استواء من غير ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها، أيجوز ذلك عندكم في العقل؟» قالوا: «لا، هذا شيء لا يقبله العقل». قال أبو حنيفة: «سبحان الله، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير ملاح، فكيف يجوز في العقل قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها من غير حافظ ولا صانع؟!» قالوا: «صدقت».

وقال رجل من علماء الغرب: «الله منظم الكون، والكون تأليفه فما أجهل الناس حيث يثنون عليه وهم عن عجائبه معرضون! إن دراسة الكون عبادة صامتة، وتسبيح عملي، وعلم الكون يعلمنا أن الكون جميعه مرتبط بناموس لا يتعداه، وأن نظامه البديع يدل على قوة وإرادة وحكمة أبدعته وسوته، والعلم يهدينا إلى الحدود التي لا نستطيع تجاوزها، ويرينا أننا عاجزون عن إدراك حقيقة كنه الله» انتهى حديثه.

هذا الوجود هو كتاب الله الذي لا تنتهي كلماته، ولو كانت البحار مدادًا لكلماته لنفدت قبل أن تنفد كلماته.

وفهم كتاب الوجود هو السبيل الوحيد لإدراك عظمة الخالق وسعة علمه، ورحمته وحكمته.

ولقد كانت جهالات أهل الدين قوية، حين رأوا الانصراف عنه. لقد جنوا جناية لا حد لها على الإسلام والمسلمين. ولقد ورثت الأجيال المتأخرة عنهم آثار هذه الجناية. وبعيد أن يغفر الله أمثال هذه الزلات.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾

السماوات : مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم. وهي مرتبة بعضها فوق بعض، تطوف دائرة في الفضاء، كل شيء منها في مكانه المقدر له بالناموس الإلهي ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمد تعتمد عليها، والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها.

فإذا قيل إن نظام الجاذبية وهذا الناموس الإلهي قائم مقام العمد، ويطلق عليه اسم العمد، جاز أن نقول: إن لها عمدًا غير منظورة. وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شيء مادي تعتمد عليه، وجب أن نقول إنها لا عمد لها.

وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها، أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها. والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام، ليست إلا هباءة دقيقة في الفضاء.

وليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السماوات ومادته وأبعاده وأقداره وأوزانه، ولكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه ليدل به على القدرة الإلهية، ويشير إليه للعظة والاعتبار.

قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءًا من السماوات وانفصلت عنها، وقرر الكتاب الكريم أن الله ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ (فصلت : ١١)، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم. وقد قال العلماء: إن حادثًا كونيًا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار، تكسرت وصارت قطعًا، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها، والأرض واحد من هذه السيارات، فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات.

فليست الأرض هي مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هي مركز هذه المجموعة. والشمس وتوابعها قرى صغيرة في العالم السماوي. وأين هي من الشعرى اليمانية التي قال الله سبحانه فيها: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾؟ (النجم: ٤٩) فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء، تساوي قدرة الشمس ٢٦ مرة، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء. فلو فرض أن الشعرى اليمانية حلت محل الشمس يومًا من الأيام، لانتهت الحياة فجأة، بغليان الأنهار والمحيطات والقارات الجليدية التي حول القطبين. وضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق. فانظر إلى هذا البعد السحيق.

وليست الشعرى اليمانية أكبر نجم في السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة.

وعظمة السماء ليست في الشمس وتوابعها، كلا، إن عظمتها في مدنها النجومية، وفي أقدارها، وأوزانها، وأضوائها، وأبعادها على اختلاف أنواعها.

وهناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسها بما يزيد على ثلاثين مليونًا من المرات. وهناك السدائم وهي قريبة من الخلق أول الأمر. ثم يقف علم الإنسان. والله تعالى وحده هو الذي يعلم خلقه:

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾

(الكهف: ٥١)

﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾

(النحل: ١٥)

أي خلق الجبال في الأرض، لئلا تميد الأرض وتضطرب. ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار:

إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها، على بعد منها، وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة كالشمس، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة، أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التي غلفت الأرض. وهناك جبال جدت من اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحار، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض، وتداخلها في الطبقات حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها.

والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها، وتوزعها وتغير اتجاهها، وتكسر حدتها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة، الصالحة للإنبات، والتي يغتذى بواسطتها الحيوان والإنسان، وتحفظها من أن تغور.

فالجبال أولاً، حبست النار في جوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة. والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح. فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ (لقمان: ١٠)

أي فرق فيها الدواب من كل نوع من أنواعها، بعد أن صلحت الأرض للحياة بوجود الطبقات الأرضية الصالحة للإنبات، وبوجود الماء النازل من السحاب. والحياة ظاهرة من الظواهر العجيبة التي وجدت على الأرض، لا يعرف سرها، ويظن أنها بدأت على صورة

بسيطة ثم أخذت تتعقد وتتعقد وتزداد تعقيدًا حتى ظهر هذا النوع الإنساني الذي هو أكمل نوع من أنواع الحيوان، فهو أحدث الأنواع القادمة إلى الأرض، ومع هذا فهو أكملها وأدلها على قدرة الخالق سبحانه، وسعة علمه وحكمته.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾
(لقمان: ١٠)

بعد أن مهد الله الأرض، وألقى فيها الرواسي، ووجدت فيها طبقات متفككة طينية وغيرها تصلح للإنبات، يسر سبيله لفائدة الإنسان وغيره من الدواب المنبثة، فأنزل من السماء ماء، وأنبت فيها كل زوج كريم من النبات. والماء النازل من السماء هو ماء الأمطار، وهو من ماء البحار الملحة التي تتبخر بواسطة ناموس الحرارة فتصير سحابا تصرفه الرياح، ثم يُنزل مطرًا يحيي به الله الأرض بعد موتها، ويسلكه ينابيع في الأرض تتفجر أحيانًا من غير صنع الإنسان، وتتفجر أحيانًا بصنعه. وكل نوع من النبات فيه الذكر والأنثى.

وقد يكون الذكر وحده والأنثى وحدها، كالنخل، وقد تكون الشجرة مشتملة على زهرتين إحداهما ذكر والأخرى أنثى.

وقد تكون الزهرة مشتملة على الذكر والأنثى معًا، وعلى كل حال فعالم النبات كعالم الحيوان لا بد فيه من التزاوج لبقاء النسل في الأنواع.

وكل زوج من النبات كريم شريف، وكل زوج من الحيوان كريم شريف، ولكل شيء منفعة خلق لأجلها.

ولا يلزم في شرف النوع أن يكون محبوبًا عند الإنسان أو مفيدًا للإنسان، وتنوعات الحياة واشتقاقاتها أوجدت هذه الأنواع ومنها الإنسان.

والنبـات والحيـوان يرجعـان إلـى عناصـر واحدة فـي الأرض لا تختلـف في أصولها، بل تختلف فـي طرق تركيبها من الذرات. وما زالـت النواميس الإلهيـة تعمل عملها، ويـزداد التعقيد في تركيب الحيوان والنبات، وتتدرج الأنواع في الرقي حتى وصلت إلى ما نحن عليـه. ومادة العالم جميعها واحدة من مبدأ الخليقة، وهي السـديم الـذي مرت عليـه الأطوار حتى صار نباتًا وحيوانًـا، وهذه هي وحدة الوجود، فالخالق واحد، والمخلوق واحد أيضًا.

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(لقمان: ١١)

بعد أن بين الله سـبحانه أنه خلق السـماوات بغيـر عمد، وألقى في الأرض رواسـي، وبث فيهـا من كل دابة، وأنزل من السـماء ماء أنبت به من كل زوج كريم، التفت إلى المشـركين الذين يشـركون مع الله في العبادة آلهة أخرى، ويسـتعينون بها، فقال لهم: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾. والإشـارة فـي (هذا) لم تبق شـيئًا قط يمكن أن يشـار إليـه من الموجودات، فكأنـه قال: هذه جميـع الموجودات خلقها ورتبهـا وسـواها، فأروني شـيئًا خلقه هـؤلاء الآلهـة. ولا يمكن أن يكون الجواب سوى أنه لا يوجد شيء خلقه الذين من دونه، فتنقطع حجتهم، وتقوم الحجة عليهم.

وسيأتي في آخر السورة قوله سبحانه:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(لقمان: ٢٥)

وقوله سبحانه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معناه أنه لا توجد للكافرين شبهة في الإشراك، لكن الضلال هو السبب في الإشراك ولا سبب غيره. والظالمون هم المشركون: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ (لقمان: ١٣). والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾

(لقمان: ١٢، ١٣)

اختلف الناس في لقمان هذا من هو، ومن أي الأمم هو؟ فقيل إنه من بني إسرائيل، وقيل إنه كان عبدًا حبشيًا، وقيل إنه أسود من سودان مصر، وقيل إنه يوناني، ومن الناس من جعله نجارًا، ومنهم من جعله راعي غنم، ومنهم من قال إنه نبي، ومنهم من قال إنه حكيم، وكل هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه. وبعد أن وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيًا مملوكًا.

وللقمان هذا حكم كثيرة أسندت إليه. ومن النوادر اللطيفة المنسوبة إليه أن مولاه أمره بذبح شاة وأن يخرج منها أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فالتفت إليه مولاه متعجبًا، فقال له لقمان: ليس هناك شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا شيء أخبث منهما إذا خبثا.

والحكمة: إصابة الحق والعمل به، فهي تشمل إصابة الحق في العقيدة، وفي القول، وفي العمل. فإصابة الحق في العقيدة تكون بالعلم الصحيح الذي هو صفة محكمة في النفس، تحكم على الإرادة

وتوجهها إلى القول الحق والعمل الحق المطابقين للعلم. والحكمة في القول والعمل: هي مطابقتهما للعلم الصحيح. فالحكمة العلمية لا شك تستدعي فهما وفطانة وفقها، ومعرفة بارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا، ومعرفة لبواطن الأمور وأسرارها. والحكمة العلمية على هذه الصفة تبعد صاحبها عن مواطن الزلل، وتسوقه إلى مواطن الخير، فيكون نافعًا لنفسه، ونافعًا لخلق الله، وتجعله حقيقًا بالخلافة عن الله في الأرض، يعمرها ويصلحها، ويستثمرها، ويستخرج ما فيها من الأسرار التي أودعها الله سبحانه إياها.

والشكر: استعمال المواهب والنعم فيما خلقت لأجله. وهو اعتراف بالحقائق الإلهية، وخضوع لها، وفناء فيها، ووقوف عند الحدود التي رسمها الخالق. وسيأتي بقية للكلام عليه.

والوعظ: تذكير بالخير بما يرق له القلب، وزجر عن الشر مقرون بتخويف.

وشرك الإنسان في الدين ضربان: أحدهما الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم الكفر وأبعد الضلال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦). ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ (المائدة: ٧٢). والثاني الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، ومن هذا قال -عليه السلام-: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا» [مسند أحمد].

كان الحديث في الآيات السابقة يدور حول تفرد الله -سبحانه وتعالى- بالخلق، واستحقاقه للتفرد بالعبادة، وأنه هو وحده الذي

يستعان به عند حزب الكرب واشتداد الضر والحاجة إلى العون، وحول الحجاج مع المشركين الذين أشركوا مع الله في العبادة آلهة أخرى، فقد بين الله سبحانه أنه خلق السماوات بغير عمد، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بأهلها وبث في الأرض أنواع الدواب، وأنزل من السماء ماء فأنبت فيها من كل زوج كريم، وأنه لا يوجد لأي إله آخر مما يعبدون خلق مثل هذا، وثبت بذلك أنه لا يجوز أن يسوى المخلوق بالخالق، وأن من يفعل ذلك ظالم ضال.

وفي هذه الآيات يقرر الله سبحانه أن الحكمة وشكر الله على نعمه قد وصل إليهما الإنسان بعقله وبفطرته، فقد شكر لقمان الله سبحانه وتعالى ووحده، ووعظ ابنه بأن لا يشرك بالله شيئًا، وبين له أن الشرك ظلم عظيم. وقد وصل لقمان إلى ذلك بالحكمة واستعمال العقل، فليس الاعتراف بالخالق وتفرده بالعبادة مما يتوقف على النبوات، بل هو مما يصل إليه العقل وتدركه الفطرة.

وقوله سبحانه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن هذه هي التي يقول عنها النحاة أن المفسرة، والأمر بقوله سبحانه: ﴿ٱشْكُرْ﴾، ليس أمر طلب باللفظ، وإنما هو أمر تكوين. والمعنى أن الله –سبحانه وتعالى– آتى عبده لقمان الحكمة وجعله شاكرًا لله، بأن هداه إلى الحق، وأعانه على الاستمساك به، وعلى العمل به. وقد عرفنا الشكر من قبل، وهو يوافق ما قاله بعض العلماء من أنه: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة. فلسانه مشتغل بالثناء على ربه معترف له بنعمته، وقلبه مملوء محبة لله على هذه النعم، وشهودًا بأنها منه فضلًا وإحسانًا، وجوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلامًا له وانقيادًا.

والشكر يحفظ الله به النعمة على عبده، ويستجلب العبد به

المزيد من ربه، كما تدفع به النقم، فما استحفظت نعم الله ولا استجلبت ولا استزيدت بمثل الشكر، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٧). ومقام الشكر مقام جليل، ولذلك مدح الله به نبيه إبراهيم فقال:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾

(النحل: ١٢٠، ١٢١)

وقال عن نوح -عليه السلام-: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء: ٣).

وفي الصحيحين «أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»؟

وجملة القول أن كلمة الشكر من الكلم الجوامع التي تنتظم كل خير، وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه. فالذي لا يحب الله ولا يشهد قلبه بأن ما فيه من النعم إنما هو من الله فضلًا وإحسانًا ليس بشاكر، والذي لا يثني على ربه ولا يحمده بلسانه ويخوض في الباطل ويشتغل لسانه بلغو القول ولهو الحديث ليس بشاكر، والذي يعطيه الله من العلم شيئًا ولا يعمل به ولا يعلمه الناس ليس بشاكر، والذي يعطيه من المال ما يستعين به على طاعته بصرفه في وجوه الخير والبر ويبخل به أو يصرفه في معاصي الله ليس بشاكر. ثم قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: ١٢).

ومعنى هذا أن منفعة الشكر ليست عائدة على الله تعالى، فإنه تعالى لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين ولا بمعصية العاصين، فإنه سبحانه وتعالى له الكمال المطلق، فلا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه، وإنما منفعة الشكر عائدة على الشاكر، فهو الذي ينتفع بالشكر ويكمل به وتكون له به السعادة، كما أن مضرة الكفر عائدة على الكافر، فالله -سبحانه وتعالى- هو الغني المحمود، الغني عن عباده وعن طاعتهم، وكل من عداه فقير محتاج إليه، كما أنه مستحق للحمد لكمال صفاته، ولكثرة نعمه على عباده، سواء أحمدوه أم لم يحمدوه. قال الله تعالى:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

(فاطر: ١٥).

ومن هذا يتبين أن امتثال أوامر الله على اختلاف أنواعها تعود منفعته إلى العباد، كما أن امتثال النواهي عائدة منفعته على العباد. فأوامر الله ونواهيه إنما هي لغاية واحدة محمودة وهي سعادة العباد وكمالهم. فالتكاليف الإلهية كلها إنما هي لمصالح العباد، ولذلك قال بعض السلف: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عنه بخلا منه عليهم، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم.

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(لقمان: ١٣)

معطوف على معنى الآية السابقة، وتقديره: آتينا لقمان الحكمة

حين جعلناه شاكرًا لنفسه، وحين جعلناه واعظًا لغيره. وذلك لأن علو مرتبة الإنسان في الحكمة أن يكون كاملا في نفسه ومكملا لغيره. وإنما كان الشرك ظلمًا عظيمًا لأن فيه تسوية بين المخلوق الذي لا نفع فيه وبين الخالق الذي منه كل جود وخير، ولأن فيه تحقيرًا للنفس الإنسانية الشريفة بأن تذل لمخلوق مثلها لا يستطيع لها نفعًا ولا ضرًا.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(لقمان: ١٤، ١٥)

هذه الوصية جاءت معترضة بين وصايا لقمان لابنه، لأن الذي سيأتي بعدها وهو قوله: ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ (لقمان: ١٦) إلى آخر الآيات، من كلام لقمان، وقد جاءت على سبيل الاستطراد لأغراض، منها: أن طاعة الوالدين تابعة لطاعة الله، حيث قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾، ومنها تأكيد فظاعة الشرك وتأكيد الابتعاد عنه، حتى إنه لا يجوز أن يطاع فيه الوالدان إذا جاهدا ولدهما عليه ولو حملهما عدم الطاعة على الموت. فقد روي أن سعد بن مالك أسلم فحلفت أمه لا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا حتى تموت أو يكفر. وبقيت على ذلك ثلاثة أيام، فقال لها سعد: والله لو كانت لك مئة نفس لخرجت قبل أن أدع ديني! فلما عرفت الجد وأنه لا يرجع إلى الكفر، أكلت.

وصى الله الإنسان بوالديه، وقد خصت الأم في ضمن الوصية بالوالدين بما يثير العطف والشفقة، حيث نبه الولد إلى أنها حملته وهي تضعف بحمله ضعفًا على ضعف كلما تقدمت مدة الحمل، وأنها مع هذه المعاناة في الحمل عانت أيضًا مشقة رضاعه في مدة الرضاع المقدر أكثرها بعامين، وعانت مشقة السهر عليه وحفظه وكفالته.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ إلى آخر الآية، تفسير لقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾. وقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ معناه أنك ترجع إلي فأسألك عما كان من شكرك لي على النعم التي أنعمتها عليك، وما كان من شكرك لوالديك وبرهما جزاء ما عانيا من مشقة في تربيتك وكفالتك حال صباك، وما وصل إليك منهما من بر وعطف وحنان.

ومعنى ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي تشرك بي شيئًا مما لا يصح أن يعلم على أنه شريك لله، وكل شيء غير الله يستحيل أن يتعلق به العلم على أنه يستحق مشاركة الله، لأن العلم الصحيح يجب أن يكون مطابقًا للواقع، والواقع أنه لا يوجد شيء يمكن أن يعلم على أنه شريك الله. وقال الزمخشري: أراد بنفي العلم نفي ما أشرك به، والمعنى: لا تشرك بي ما ليس بشيء وهي الأصنام، ونظير ذلك قوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ (العنكبوت: ٤٢) فقد بولغ في نفي الشريك حتى جُعل كلا شيء، ثم بُولغ حتى جُعل مما لا يصح أن يعلم، لأنه من باب المجهول المطلق.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: أي صحابًا

معروفًا يرتضيه الشرع والعرف والكرم والمروءة من إطعام وبر وعدم جفاء، ومن توقير واحترام وحلم واحتمال.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾: أي اتبع طريق المؤمنين منهما الذي يوافق دينك، ولا تتبع سبيلهما في دينهما الذي يخالف دينك وهو دين الحق.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: أي تعودون إليّ يوم القيامة فأخبركم بجميع ما كنتم تعملونه في الدنيا من خير أو شر وأجازيكم عليه، أجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. والجملة توكيد لقوله: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ﴾.

﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾
(لقمان: ١٦)

الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ يعود على الخصلة والفعلة، يعني أن ما يعمله الإنسان من خير أو شر، وإن كان في الصغر والقماءة مثل حبة الخردل، وكان على صغره في حرز منيع كالصخرة، أو بعيدًا كأن يكون في السماوات أو في جوف الأرض، يعلمه الله سبحانه، وهو قادر أيضًا على أن يأتي به، فإن الله سبحانه لطيف نافذ القدرة، خبير عالم بكل شيء، سواء كان ظاهرًا أو خفيًا.

والغرض من هذه الآية وصف الله سبحانه بسعة العلم وشمول القدرة، بعد وصفه بالوحدة والتفرد بالخلق والعبادة والقدرة على الإتيان لا شك تكون بعد العلم، فقوله سبحانه ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ معناه: يعلمها ويقدر على الإتيان بها.

﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ

﴿ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

(لقمان : ١٧)

بعد أن خوّف لقمان ولده من الشرك، ونبهه إلى أنه ظلم عظيم، وعلمه سعة علم الله سبحانه وشمول قدرته، توجه إليه يعلمه ما يكون به رجلا كاملا في نفسه مكملا لغيره:

أمره بإقامة الصلاة، وفيها طهر نفسه وتزكيتها، وفيها تحقيق الصلة بينه وبين الله. وقد سبق في تفسير أول السورة معنى إقامة الصلاة، ويكفي أن نقول هنا: إن إقامة الصلاة تجويدها واشتمالها على الإخلاص لله.

وطلب منه أن يكون خيرًا نافعًا للخلق، وعضوًا مفيدًا في الجماعة الإنسانية، وذلك بأن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعار الجماعة الفاضلة، وإذا فقد من أمة فقدت منها صفات الخير وضَرَت على الشر، وهو واجب على كل واحد لكل واحد. وقد نبه الله سبحانه عليه في آيات كثيرة من آي القرآن الكريم:

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ

﴿ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾
(المائدة : ٧٨ ، ٧٩)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أثر من آثار الإيمان، وأثر من آثار حب الفضيلة، وأساس من أسس صلاح المجتمع الإنساني، وهو يوقظ الشعور، وينبه الضمير، ويخيف المُقْدِم على المنكر. وإذا تضامن الناس في ذلك -كما هو الواجب شرعًا- وجد تضامن الناس على الفضيلة فلا تضيع بينهم، ووجد تضامنهم على استنكار الرذيلة فلا توجد بينهم. وتضامن الناس على الفضيلة قد يوجد عند الأمم التي لا تدين بدين، فيوجد عندها الطهر والشرف، وقد تفقده الأمم التي تدين بدين فتستحق لعنة الله!

بعد أن طلب منه أن يكون على صلة بالله بإقامة الصلاة، وطلب إليه أن يكون مكملا للناس، طلب إليه أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة، واختار له منها مثالا هو أكمل أمثلتها وهو الصبر على المصيبة، وعلى ما يناله من أذى، سواء أكان ذلك في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم كان في غير ذلك. والصبر على المصيبات يبقي للعقل نوره، ويبقي للشخص وقاره، فلا يخرج عن حدود الله، ولا يذهب في العقاب إلى ما لا يرضاه الله، والصبر في الحرب شجاعة، والصبر على القيام بأوامر الله طاعة، والصبر على مفارقة المال كرم. وعلى الجملة ففيه رضا الله سبحانه، وفيه عز الفرد وعز الأمم

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠)

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ١٥٣)

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ : أي من معزومات الأمور ومقطوعاتها، أي مما قطعه الله وفرضه قطع إلزام. وهذه

الآيــة تدل علــى أن هذه الأمور التــي أوصى بها لقمــان ولده معروفة عنــد الحكماء قبــل أن تجيء بها الأديــان، ومتواصى بهــا من خيار الناس قبل أن يرســل الأنبياء. وفي الحقيقة أنها عماد الخير، وسنام الفضيلة في كل أمة من الأمم، سعد من اتبعها، وشقي من ضل عنها.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

(لقمان: ١٨، ١٩)

صعــر خده وصاعر خده: معناهما واحــد. والصعر والصيد: داء يصيب البعير فيلوي منه عنقه. والمرح: الفرح مع البطر. والخيلاء: التكبر الناشئ عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان في نفسه. والفخر: المباهاة بالأشــياء الخارجة عن الإنســان كالمــال والجاه. والقصد: الاقتصــاد، بأن يكون على قدر الحاجة. والغض: النقص من الصوت إلى القدر المطلوب.

بعــد أن أمره بتكميل نفســه وتكميــل غيره، نهاه عــن الإيذاء، فنهــاه عن لي عنقه وعدم مقابلة الناس بوجهــه بغية التكبر عليهم، ونهاه عن شــدة الفرح مع البطر، فإن هذه الصفات لا يرضاها الكرم والنبل، وفيها تعاظم يؤذي الناس. ثم بين له أن الله لا يحب المختال ولا الفخور، لأن الله يحب أن يكون الناس أخوة متحابين، يعيشــون كما يعيش الأخوة، لا يتعاظم أحد منهم على أحد.

بعــد ذلــك طلب لقمان إلــى ابنه أن يقتصد في مشــيه، فلا يدب على الأرض دبيب المتماوتين، ولا يمشي عليها مشي الشطار، كما طلب منه أن يجعل صوته على قدر الحاجة، فإن ذلك أوقر للمتكلم، وأحفظ لقواه ولهيبته، وأدعى إلى فهم الســامع وأبسط لنفسه. وقد

بين لقمان شناعة رفع الصوت وفحشه فشبه من يرفع صوته من غير حاجة إلى رفع الصوت بالحمار، وشبه صوته بنهاق الحمار، والحمار يضن بصوته عند الحاجة، فإذا مات تحت الحمل لا يصيح، وإذا قتل لا يصيح، ثم هو يصيح في أوقات عدم الحاجة. والحمار مثل في الذم، ونهاقه مثل في الشناعة. وقد كانت العرب ترى أن اسم الحمار لا يذكر في مجلس قوم من أولي المروءة، ومن العرب من كان لا يركب الحمار ولو بلغت منه الرجلة ما بلغت. فالحمار ذميم، وصوته ذميم، وهو أوحش الأصوات وأقبحها وأنكرها.

هكذا يؤدب الله عباده، ويضمِّن كتابه ما فيه سعادتهم، حتى لم يترك أدبهم في المشي والحديث. ولو كانت الحكمة التي أوتيها لقمان والتي قصها الله في القرآن هي التي لها السيادة على الناس، لكان حال العالم اليوم أرقى وأرفع وأشرف، وأكمل وأهنأ وأسعد مما هو عليه الآن.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

(لقمان: ٢٠، ٢١)

التسخير: سوق الشيء إلى الغرض المقصود منه قهرًا، وهو على ضربين: ضرب يكون فيه المسخر منقادًا للمسخر له، يتصرف فيه كيف شاء، ويستعمله كما يريد، مثل الأشياء التي في متناول الإنسان في الأرض من جماد وحيوان، وضرب يكون فيه المسخر سببًا لحصول ما ينفع المسخر له من غير أن يكون له دخل في استعماله، كالأشياء الموجودة في السماء من شمس وقمر ونجوم

وسحاب ومطر، فهي أشياء نيطت بها مصالح العباد من غير أن يكون لهم تصرف فيها، فحرارة الشمس سبب في المطر، والمطر يحيي النبات، وحرارة الشمس سبب في حياة النبات والحيوان، وضوء القمر ينتفع به الساري، والنجوم يهتدى بها في البر والبحر، كل هذه الأشياء ينتفع بها الإنسان من غير أن يكون له دخل في تصريفها وتقديرها. وغير خاف أن منفعة هذه الأشياء جميعها ليست مقصورة على الإنسان، فهي مما ينتفع به النبات، ومما ينتفع به الحيوان، غير أنه لما كان كل شيء من هذه العوالم قد انتفع به الإنسان صار كأنه المقصود بالانتفاع دون غيره، وكأن التسخير لم يكن إلا لأجله.

ومعنى ﴿وَأَسۡبَغَ﴾: أتم وأوسع وأكمل. والنعمة: ما ينتفع به وتحمد عاقبته ويقصد به الإحسان. والنعم الظاهرة: ما يدرك بالحواس الظاهرة، والنعم الباطنة: ما يدرك بالحس الباطن أو يدرك بالعقل، وقد لا يهتدي إلى إدراكها الإنسان، وكم لله من نعمة لم يعرفها الإنسان بعد. والعلم دائمًا يكشف عن نعم كانت مجهولة من قبل. وكل شيء من النعم لم يقصد الله به إلا الإحسان، لأنه لا يفعل شيئًا إلا لحكمة وغاية، ولا شيء مما يفعله يعود نفعه إليه، فهو الغني الحميد. وإذا كان ذلك كذلك فليست هناك حكمة في إيصال النعمة وخلقها إلا منفعة الإنسان.

والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله المصارعة وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة. ثم استعمل في المناظرة لا لإظهار الحق بل لإرادة الغلبة والقهر.

بين الله سبحانه في الآيات السابقة أنه خلق السماوات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسي، وبث فيها من كل دابة، وأنزل من

السماء ماء فأنبت فيها من كل زوج كريم، ونبه المشركين إلى أن ما عبدوا من دونه لم يخلقوا شيئًا، فهم لا يستحقون العبادة معه، ولا يستحقون التوجه إليهم بطلب الاستعانة: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟! (النحل: ١٧)

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الفرقان: ٣).

ومن أخص صفات المعبود أن يكون خالقًا غير مخلوق، فإنه لا يجوز في نظر العقل أن يذل الإنسان لمخلوق مثله لا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وفي هذه الآيات بين الله سبحانه أنه المتفرد بالنعمة، فإنه هو الذي سخر كل شيء في السماوات والأرض لمنفعة الإنسان نعمة منه وفضلا، ففي الأرض غذاؤه ومشربه وكساؤه ومركبه، وفيها ملذاته ومسراته، وفيها يزرع ما يحصده في الآخرة من الأعمال الصالحة التي يسعد بها في دار النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار في جوار رب العالمين، وفي السماء نجوم يهتدي بها، وشمس هي سراج منير، وقمر هو ضياء، ولولا الشمس لتعطلت كل منفعة في الأرض نيطت بها سعادته، فلا حياة لنبات ولا حياة لحيوان ولا حياة لإنسان ولا مطر ولا سحاب إلا بحرارتها ونورها، فالسماوات في خدمة الإنسان مذللة له، والأرض في خدمة الإنسان طوع أمره يتصرف فيها كما يريد طبقًا للنواميس المقدرة، وإذا كان هو المتفرد بالنعمة فهو المتفرد بالعبادة.

ليذكر الإنسان أن شربة الماء التي يروي بها ظمأه سخرت لها السماوات والأرض، فحرارة الشمس سبب في تبخر الماء الملح الأجاج من البحر، وسبب في ارتفاعه إلى الطبقات العلوية، ومنها

يتساقط على الأرض ماء عذبًا ينقع الغلة ويحيي الأرض بعد موتها، وقرص الخبز يأكله الجائع سخرت له الشمس والأرض، وسخر له الحارث والحاصد والدارس، والتاجر والطاحن والعاجن والخابز، إلى غير ذلك من الوسائط سخر الله ما في السماوات والأرض لمنفعة الإنسان وسعادته ثم أكمل عليه النعمة وأوسعها وأتمها فمنحه قوى ظاهرة ومنحه قوى باطنة ومنحه العقل الذي استطاع به تذليل كل شيء والذي هو وسيلة المعرفة وأكمل طرق الهداية والذي كشف به أسرار الوجود واهتدى به إلى واجب الوجود واستعد به بأن يتلقى الوحي عن خالق الخلق ومرسل الرسل ولأن يكون خليفة الله في الأرض يعمرها.

وخلاصة هذه الآية أنها استدلال بالآفاق والأنفس بعد الاستدلال بالخلق:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾؟

(فصلت: ٥٣)

سخر الله هذا كله للإنسان وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ومع هذا كله فإن من الناس طائفة من الأغبياء الجهلاء الذين لم يستعملوا عقلهم فيما خلق له من النظر والاستدلال والعظة والاعتبار تنازع وتجادل في الله تعالى وفي استحقاقه للتفرد بالعبادة وتعبد أصناما لا تضر ولا تنفع وتُكذب بالبعث وتُكذب الأنبياء بعد قيام حجتهم.

هؤلاء الأغبياء ليس لهم علم عن دليل، وأين يكون لهم علم عن دليل والدليل قائم على خلاف مذاهبهم؟ قائم من الخلق ومن الآفاق والأنفس وليس لهم علم من هدى عن نبي معصوم تلقوا عنه ما هم عليه وأين يكون الهدى والمعصوم يخبر بغير آرائهم ويسفه أحلامهم؟ وليس لهم علم من كتاب يستندون إليه وأين يكون

الكتاب الذي يستندون إليه وجميع الكتب السماوية تقرر التوحيد وتقـرر البعث وهـذه الأمـور الثلاثة وهـي العلم والهـدى والكتاب المنيـر هي طرق العلـم الصحيحة عند العقلاء؟! فهم لا يسـتندون إلى شيء مما يليق بالعاقل أن يستند إليه إنما يستندون إلى جهالات وضـلالات تلقوهـا تقليدا عن آبائهم حتى إنه إذا قيـل لهم اتبعوا ما أنـزل الله، قالـوا بل نتبع مـا وجدنا عليـه آباءنا! مثل هـذه الطائفة عميت منها البصائر وضلت السبيل السوي وحادت عن منهج الحق وعن مسالك العقلاء، فطريقهم طريق الشيطان يوسوس لهم ويزين لهم فيتبعون دعوته والشيطان يدعو إلى عذاب النار؛ لأنه يدعو إلى الشرك والضلال وهما هاديان إلى النار.

لكن الله سبحانه يدعو إلى الجنة وإلى صراط مستقيم، فالله أحق بالاتباع والشيطان أحق بالإعراض ولذلك أنكر الله سبحانه عليهم قولهم، فقال:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾!

وقـرأ بعـض القـراء ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ على صيغـة الجمع، وبعضهم (وأسـبغَ عليكم نعمـةً) على صيغة الواحـد، والمعنى لا يختلـف وصيغة المفرد تسـتعمل في المفرد وفـي الجمع، كما أن صيغة الجمع تتناول الواحد وقد قال الله سبحانه:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (النحل: ١٨).

ومن المعلوم أنه لم يرد نعمة واحدة وقال في آية أخرى:

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ﴾ (النحل: ١٢١).

ذم الله سـبحانه في هذه الآية المجادلين عن غير علم وذم التقليد وعدم الاهتداء بالعلم الناشـئ عن الدليل أو بالهدى عن المعصوم أو بكتاب منير.

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة في هذا المعنى تذم التقليد وتعيب المقلدين:

﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟!

(البقرة: ١٧٠)

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾؟!

(الزخرف: ٢٣، ٢٤)

فالذي تقضى به آيات الكتاب الكريم أنه لا يجوز الاستناد إلى التقليد في أصول العقائد وأن إيمان المقلِّد إيمان لا يعبأ الله به، وهو إيمان لا عمل لصاحبه فيه، وكيف ينجو مؤمن من غير عمل؟ وإذا جاز للمقلد النجاة بالتقليد لمجرد المصادفة وأنه اتبع والدا أو شيخا كان مؤمنا، فلم يعذب الله من كان كفره بالتقليد ومجرد المصادفة؛ لأن أباه كان كافرا وكلاهما لا عمل له يعتد به؟ إن الكافر المقلد لم يذم إلا لأنه لم يتبع طرق العلم الصحيحة والمؤمن المقلد لم يتبع طرق العلم الصحيحة؛ لأنه وإن اتبع الرسول فهو لم يتبعه بعد أن قام الدليل عنده على صدقه، بل اتبعه تقليدا ولو أنه اتبع الرسول بعد أن قام الدليل عنده على صدقه لكان ناجيا لا شك؛ لأنه بعد قيام الدليل يكون قول المعصوم هديا يصح الاستناد عليه، ويكون كتابه هديا يصح الاستناد إليه.

ولذلك قال الإمام الرازي وأكثر العلماء: «إن التقليد لا يكفي في أصول العقائد، ويجب النظر في الأدلة على كل واحد» ونقل

الخفاجي أنه لا خلاف في امتناع تقليد من لم يعلم أنه مستند إلى دليل حق، والاعتراف بالخالق لا يحتاج إلى عناء في النظر، ويكفي فيه رفع الغشاوة عن البصر.

وقد نصب الله الأدلة وأوضح الحجة في الآفاق والأنفس. وليس الغرض من الأدلة الأدلة الجارية على قواعد المنطق في الأقيسة، ومقدماتها وأشكالها وضروبها؛ بل يكفي ما قاله الأعرابي: «البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير، أرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على اللطيف الخبير».

ومما تحسن الإشارة إليه ما روي عن الإمام أحمد -رضي الله عنه- في شخص أخبره فقيهان برأيين مختلفين، قال: «لا يجوز له العمل بأيهما شاء، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع ما يطمئن إليه قلبه» فقد جعل اطمئنان القلب قائمًا مقام الدليل في أحكام الفقه فهو لم يرض بالتقليد حتى في الفروع الفقهية كل هذا للخروج عن الذم الذي وجهه الله تعالى إلى المقلدين.

وقد وصف الله سبحانه الكتاب بالمنير والمراد به الواضح الذي لا خفاء فيه ولا لبس لينبه إلى أنه لا يجوز التمسك في العقائد بالآيات التي فيها خفاء والتي هي محل تأويل فإن التمسك بمثل هذه الآيات قد أضل كثيرا من الناس وتعلق كل صاحب مذهب في الاستدلال على رأيه بأحد الوجوه فتعددت المذاهب والفرق وكل واحد يدعي أن الكتاب ناصره وأنه مع الحق لم يفارقه.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (لقمان: ٢٢- ٢٤)

العــروة من الحبل : هــي الناحية من نواحيــه ، والوثقى : المتينة ، والوجه : الذات ، والتسليم : التفويض .

والمعنى أن من يســلم ذاته إلى الله سبحانه ويفوض إليه أمره ويحسن في عمله : يطيع أوامر الله ويحذر منهياته ويســير في الأسباب التي سنها الله في الكون وربط بها مســبباتها مراقبًا في ذلك وجه الله فهذا شــخص تعلق بأقوى طرف من أطراف حبل النجاة ، فلا ينقطع به الحبل ولا يتردى في الهاوية ، وهذا مَثلٌ ضربه الله سبحانه للمحسن المفوض ، فجعل حاله كحــال الشــخص الــذي أراد أن ينزل من شــاهق الجبل فتمســك بأقوى أطرافه فهو بمأمن من الســقوط وانقطاع الحبــل إلى أن يصل إلى الأرض ســليمًا ، وهذا الذي أســلم وجهه إلى الله وهو محسن ســينال في الآخرة جزاءه على ما قدم من خير ، فإن مرد الأمور جميعها إلى الله سبحانه ، وهو يجازي على الذرة من الخير كما يجازي على الذرة من الشر :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

أمــا الكافــر فلا يحزنــك أيها النبي كفــره ولا يهمّنــك أمره ، إن مرجعــه إلى الله وهو العليــم بذات الصدور ، وبمــا تنطوي عليه كل نفس ، وســيخبره بما قدم من شر وسيجازيه عليه ويرده مقهورًا إلى العــذاب الغليظ الثقيــل ، ومتعة الكافــر في الدنيا متعــة قليلة ؛ لأن أجل الإنســان في هذه الحياة قصير مهما طال ، فهو وإن متع في هذه الحياة فســيكون أمره في الحياة الآخــرة غير أمره في الحياة الدنيا ، إنه سيقع في العذاب الغليظ في أمد طويل لا نهاية له .

ولهذه الآية نظائر كثيرة جدًا في القرآن :

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس : ١٠٨)

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾
(الإسراء: ٧)

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾
(لقمان: ١٢)

والغرض منها جميعها تقرير قاعدة واحدة: هي أن كل شيء يعمله الإنسان ففائدته تعود عليه فإن عمل خيرًا لقي جزاءه من الخير، وإن عمل شرًا لقي جزاءه من الشر فلا كفر الكافر يضر الله ورسوله، ولا إيمان المؤمن يعود على الله ورسوله، والتكاليف جميعها لم يقصد بها إلا مصلحة العباد.

وقد سلى الله سبحانه رسوله بقوله:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ (لقمان: ٢٣)

لينصرف بهمه كله إلى الدعوة وتبليغ الرسالة وسياسة الخلق والإمام الأكبر[٣] يجب أن يوفر له الصفو ويباعد عنه الحزن المقلق المثير للهم والصارف عن الخير، وللبشرية أحكامها التي تراقب وتعالج ومن الذي يعالج الأنبياء ويراقب خطرات نفوسهم، ويثبتهم إلا الله الحكيم الذي بعثهم وأيدهم فهو يرعاهم ويحوطهم؟

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾
(الإسراء: ٧٤، ٧٥).

وقد كان ﷺ يألم أشد الألم لضلال قومه ويدل لذلك قول الله تعالى:

---

(٣) المقصود به النبي ﷺ

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

(الكهف: ٦)

ومعنى قوله سبحانه:

﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ (لقمان: ٢٤)

أن الكافر لا يعلم أن كفره ينتهي به إلى عذاب النار، فهو لم يكن مريدا لعذاب النار ومختارا له، لكنه أراد الكفر ومرد الكافر إلى النار، فهو مسوق إليها رغم أنفه، وملجأ إليها اضطرارا وللأعمال البشرية غايات وآثار تنتهي إليها بحسب السنن ونظام الأسباب والمسببات، كما يفضي إلى الإسراف في الشهوات والراحة المفرطة والتعب المضني إلى بعض الأمراض، وأعمال الفساق وأعمال الكفار تفضي إلى النار كما يفضي الإسراف في الشهوات إلى المرض فهي من الأسباب التي ربطت بها مسبباتها حسب الناموس الإلهي والنظام العادل الذي سنه العليم الحكيم.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾

(لقمان: ٢٥، ٢٦)

هذا رجوع إلى الاستدلال بالخلق والنعم على تفرد الله سبحانه بالعبادة، لكن الاستدلال هنا بإقرار الجاحدين أنفسهم، فالله سبحانه يقول لنبيه: إنك إن سألت المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ويجعلون له أندادا وشركاء في العبادة: من خلق السماوات والأرض؟ ليقولن: خلقهن الله، لا يستطيعون إنكارا لوضوح الدلائل عليه وقيام الحجة وتأييد الفطرة، وهذا الاعتراف يوجب الاعتراف

باستحقاق الله وحده للعبادة، ويوجب نقض مذاهبهم ومعتقداتهم، فاحمد الله سبحانه على أن الحجة لزمتهم بإقرارهم كما لزمتهم بالأدلة الماثلة، لكن هؤلاء جهلاء أغبياء لا يعرفون طرق الاستدلال ولا يعرفون التلازم بين التفرد في الخلق والتفرد في العبادة، وهذه الجهالة هي التي ورطتهم فيما هم عليه وهذا هو معنى قوله سبحانه:

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

والاعتراف بالتفرد بخلق السماوات والأرض اعتراف بأنه المالك لما فيهما المتصرف فيه، فهو مالك جميع المنافع التي تعود على الخلق وهو الذي أحسن إليهم بها على سبيل الفضل والمنة منه، إن الله هو الغني عن كل شيء سواه وهو الحميد المستحق للحمد في ذاته حمده الناس أم لم يحمدوه، والمتتبع لآي القرآن الكريم في دحض الشرك وإقامة الأدلة على الوحدة يرى أنه موضوع أطيل الحديث فيه وأعيد وكرر؛ لأنه أهم موضوع تبنى عليه الشرائع وتقوم على أسسه قواعد الإصلاح، وللتكرار فعل في النفوس لا ينكر أثره وبخاصة إذا كان من نوع أساليب القرآن القوية الجذابة التي تفعل في النفوس ما لا يفعل السحر.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(لقمان: ٢٧)

المعنى: ولو أن أشجار الأرض كلها بريت أقلامًا وجعل البحر كله مدادًا لهذه الأقلام ثم مد هذا البحر بسبعة أبحر مثله، وكتبت كلمات الله سبحانه بهذه الأقلام وهذا المداد لتكسرت الأقلام وفني المداد قبل أن تنفد كلمات الله، فإنه العزيز القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء، والذي لا نهاية لمقدوراته، الحكيم الذي لا يخرج

شيء عن علمه وحكمته ولا نهاية لعلمه كما لا نهاية لمقدوراته.

وأكثر المفسرين على أن المراد بالكلمات هنا الألفاظ التي يعبر بها عما في علمه وقدرته ولهم في أسباب النزول روايات مختلفة لا يعنينا ذكرها، فإن الآية متسقة مع الآيات قبلها ولا يتوقف تفسير معناها على بيان أسباب النزول، وبعض المفسرين على أن المراد بالكلمات هنا عجائب صنع الله وعجائب قدرته، وأطلق عليها اسم الكلمات مجازا من إطلاق اسم السبب على المسبب، فإن قول الله: كن وهي كلمة سبب في إيجاد الأشياء وفي بروز عجائب الصنع إلى الوجود وهذا كما يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك، وكما يقال للمريض: هذا شفاؤك، وهم يشيرون إلى الدواء، والشجاع ليس هو الموت لكنه سببه، والدواء ليس هو الشفاء لكنه سببه.

وقد نقل مثل هذا عن بعض السلف فقد روي عن قتادة أنه قال: لنفد البحر قبل أن تنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه، وكلا المعنيين صحيح والمآل واحد على كلا الرأيين فإن الله سبحانه بعد أن بين أنه خالق السماوات والأرض، وأنه مالك كل شيء فيهما، أراد أن يبين أن قدرته لا تقف عند هذا الحد من خلق السماوات والأرض، وما فيهما وأنه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له ومما إذا أريد أن يكتب لفنيت الأقلام والبحار قبل أن يكتب، ولا شك أن الذي يكتب هو الكلمات التي تدل عليه فيصح أن يراد عجائب الصنع والذي يكتب هو الكلمات ويصح أن تراد الكلمات من أول الأمر.

وهذا التفسير لوحظ فيه أن الكلمات التي لا تنفد هي المقدورات التي لا نهاية لها مما هو خارج عن السماوات والأرض، والأولى أن يراد بالكلمات التي لا تنفد عجائب الصنع في السماوات والأرض،

فإن ما فيها من دقة الوضع وحسن التأليف والنظم ومن الأسرار الباهرة في كل جزء مما حوته السماوات والأرض وفي كل نوع من الحيوان والنبات في ذلك من الأسرار والجمال ما لو فهم وأريد أن يكتب لما استطاع أحد أن يكتبه لأنه لا توجد له أقلام ولا يوجد له مداد يفي به، وكأن الله سبحانه يقول: إن عجائب صنعي في هذه السماوات التي تعرفونها، وهذه الأرض التي تعرفونها لا تنتهي عند حد ولا يستطاع كتابتها، مع أنها في شيء محدود متناه وفي هذا من عظمة الخلق وعجائب الصنع ما يرجح الرأي الذي أشرت إليه، وقد ظهر من هذا أن الآية متسقة مع الآيات قبلها لأنها كلها في بيان التفرد بالخلق وعظمة الخالق وعظم المخلوق وبدائع هذا الخلق وعجائب الصنع فيه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾

(الكهف: ١٠٩)

وكلمة ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ في قوله:

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾

مأخوذة من قولهم: مد الدواة وأمدها فكأنه جعل البحر دواة وجعل الأبحر السبعة مدادا.

وقوله:

﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾

لا يراد بها العدد المخصوص بل يراد بها الكثرة ونظير ذلك قوله عليه السلام: «المؤمن يأكل في معي والكافر يأكل في سبعة

أمعاء» [صحيح البخاري] ومن الواضح أنه ليس للكافر سبعة أمعاء بل المراد قلة الأكل وكثرته، ومثل هذا يمكن أن يقال في أبواب النار، أما الأبواب الثمانية للجنة فقد أريد بالزيادة فيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسلك النار لراحة أهلها وزيادة العناية بهم، وكذلك يقال في السماوات السبع والأرضين السبع والعرب تذكر السبعة للكثرة وتذكر السبعين للكثرة كذلك ومنه:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠)

ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم في السبعين ولا في السبعة الآلاف ونظيره:

﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة: ٣٢).

يراد في سلسلة طويلة هائلة ولا يراد التقدير بهذا العدد، وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ظاهر المناسبة جدًا عند حمل الكلمات على عجائب الصنع وعلى المقدورات التي لا نهاية لها، وهو ظاهر المناسبة أيضًا على إرادة الألفاظ التي يعبر بها عن المقدورات وعجائب الصنع باعتبار مدلول الكلمات.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (لقمان: ٢٨)

هذه نتيجة من نتائج الآيات السابقة، فقد كان الحديث عن عظمة قدرة الله وسعة علم الله، فهذه القدرة الباهرة الغالبة التي لا يعجزها شيء ولا يشغلها شيء عن شيء، تخلق العالم كله بجميع

ما فيه من أنواع كما تخلق نفسا واحدة، وتبعث الناس كلهم كما تبعث نفسا واحدة، وهذه النتيجة التي جعلت تابعة لمقدماتها مما أنكره المشركون، فقد كذبوا بالبعث كما عددوا الآلهة، قالوا:

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(المؤمنون: ٨٢، ٨٣)

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(يس: ٧٨- ٨١)

بعد هذا كله أنذر الله سبحانه عباده بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٥)

فهو سميع بما يقوله المشركون من شرك وتكذيب وإنكار للبعث، إلى غير ذلك من أنواع الضلال، وهو بصير بأعمالهم وسيجازيهم عليها

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(الانفطار: ١٩)

وقريب منه:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (التوبة: ١٠٥)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾
(لقمان: ٢٩)

إذا تساوى الليل والنهار في الطول ثم أخذ الليل في الزيادة، مال النهار إلى القصر، وبذلك يأخذ الليل من وقت النهار ويدخل فيه، وإذا تساويا وأخذ النهار في الزيادة، مال الليل إلى القصر، وبذلك يأخذ النهار من وقت الليل ويدخل فيه، فالزائد يدخل في زمن الناقص، وهذا معنى ولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل ويتعلق بهذا الموضوع كلام طويل مشروح في علم آخر يبين درجات الطول والعرض، واختلاف الأيام والليالي، وأقصر الأيام وأطولها في الأقطار المختلفة، وتفسير الآية لا يتوقف عليه وقد فرغت قبل ذلك في الدرس السابق من تفسير التسخير وبيان أنواعه والشمس تجري إلى أجل مسمى مقدر عند الله تعالى لا تتجاوزه، قد يكون يوم القيامة وقد يكون قبل ذلك وكذلك القمر فهما يجريان إلى أن يبلغ كل أجله وينتهي إليه.

تعاقب الليل والنهار، واختلافهما بالزيادة والنقص، على تقدير وحساب مطرد وجري الشمس والقمر في مداريهما على حساب وتقدير، من الأدلة على قدرة الخالق وعظمته.

وقد أوجد تلك النواميس الدقيقة وقدرها ذلك التقدير البديع لمنفعة العباد ومصالحهم، فاختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية، هو السبب في اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة، وفي هبوب الرياح وتساقط الأمطار تبعا لناموس الحرارة والبرودة، وكل ذلك سبب في بقاء مملكتي النبات والحيوان والرياح كما تسير السحاب، تسير

السـفن، والسـحب لا تعدو طرقها المرسـومة لها طبقـا للنواميس ومضمون هذه الآية داخل في عموم قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(لقمان: ٢٠)

فإن دخـول الليل في النهار، ودخول النهار في الليل، وتسـخير الشـمس والقمر، كل ذلـك داخل في قولـه: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

كما أن مضمون قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾

داخل في ذلك

لكن الله سبحانه أراد أن يفصل نعمه، وأن يدل على عظيم قدرته بآياتـه البينات، لينبـه الغافلين من عباده، ويزيـد إيمان المؤمنين، وقد جمع الله سـبحانه في آية واحدة من آيات سـورة البقرة جملة من النعم ودلائل القدرة فصل بعضها عن بعض في هذه السورة، وفرقت في آياتها: تلك الآية قوله:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(البقرة: ١٦٤)

هـذه الآيـة مرتبة ترتيبا بديعـا، ارتبطت فيـه الكائنات جميعها علويها وسـفليها حسـب ما هي مرتبطة في الواقـع ونفس الأمر بدأ

بالسماوات والأرض لأنها أصل الخلق ولها دخل في اختلاف الليل والنهار، واختلاف الليل والنهار يدعو إلى اختلاف درجات الحرارة والبرودة، وذلك يدعو إلى هبوب الرياح وإلى تكوين السحاب، والرياح تسير السحاب فيتساقط المطر تبعا لناموس الحرارة والبرودة، والله يحيي الأرض بعد موتها بالماء النازل من السماء، فيتكون النبات المختلف الألوان، وفي نماء النبات بقاء الحيوان.

فاتحاد الماء النازل من السماء بالعناصر الأرضية، هو السبب في مملكتي النبات والحيوان، فقد عملت السماوات والأرض جميعها في هذه الأنواع التي تعيش على الأرض، والتي سخرت جميعها للإنسان ومملكة النبات والحيوان ترجع إلى عناصر واحدة في الأرض لا خلاف في أصلها، وإنما الخلاف في طريق تركيبها من الذرات.

والأرض في الأصل جزء من الشمس، والشمس جزء من السديم، وكل شيء في الأرض أصله السديم، وهو واحد، وخالقه واحد، ولذلك جاءت آية البقرة عقب قوله سبحانه:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾

(البقرة: ١٦٣)

والخطاب في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

موجه إلى أي شخص يصح أن يتوجه إليه الخطاب ومعنى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم والواقع أن ذلك من حقه أن يعلمه كل واحد من المخاطبين، لقيام الأدلة ووضوح الدلالة عليه.

وقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

معطوف على ما قبله، فهو داخل فيما تعلق به علم المخاطبين، لأن الذي أوجد هذا النظام البديع، ونسق العالم هذا التنسيق الدقيق، وأوجد فيه هذه النواميس التي وحدته، لا شك أنه عالم بكل دقيقة فيه والذي يعلم كل دقيقة في العالم، يعلم بلا شبهة ما يعمله الناس في هذه الحياة، وسيجازيهم عليه في الحياة الأخرى، وهذا كله من حقه أن يتعلق به علم المخاطبين.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (لقمان: ٣٠)

الإشارة في قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى كل ما سبق في السورة، من خلق السماوات بغير عمد، وإلقاء الجبال في الأرض خشية أن تميد، وإنزال الماء من السماء، وبث الدواب في الأرض، وإنبات أزواج النبات، وشمول قدرة الله وعلمه لكل شيء، وتسخير الشمس والقمر وكل ما في السماوات والأرض، وإسباغ النعم ظاهرة وباطنة، وقدرته على البعث، واختلاف الليل والنهار، كل ذلك سببه أن الله هو الحق الثابت في نفسه الذي لا يزول، المستغني عن كل شيء بنفسه، والذي يفتقر كل شيء إليه، فوجوده هو الوجود الواجب، وكل ما عداه فهو باطل زائل؛ لأنك إذا نظرت إليه غير مرتبط بالخالق، وجدته عدما لا يلبس ثوب الموجود ولا يشرق عليه الوجود، وإذا كان كل ما عداه باطلا، فالآلهة التي عبدوها من دون الله من ذلك الباطل فهو العلي المتعالي بذاته وبصفاته عن كل مخلوق، وهو الكبير العظيم الشأن، يجل عن أن يكون له شريك، فلا شيء يدنو من عظمته:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١)

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٨٨)

وقد اشتملت الآيات السابقة على صفات الكمال جميعها من صفات ثبوتية، وصفات سلبية وقد قسم العلماء الموجودات إلى أربعة أقسام: ناقص، ومكتف، وتام، وفوق التمام، فالناقص هو الفاقد ما ينبغي أن يكون له كالمريض والأعمى، والمكتفي هو الذى أعطي ما يدفع به حاجته عند نزولها كالإنسان والحيوان: أعطيا من الوسائل ما يدفع حاجتهما عند نزولها لكن هذه الوسائل عرضة للزوال، والتام ما أعطي كل ما جاز له وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين، أعطوا من الدرجات ما لا يزيد ولا ينقص، والذي فوق التمام هو الذي ثبت له كل ما هو جائز له وأمد غيره بما هو محتاج إليه، فهو الغني عن كل ما عداه، العظيم في نفسه، فقوله سبحانه:

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

لا ينطبق إلا على القسم الأخير الذي هو فوق التمام.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

(لقمان: ٣١)

البحر نعمة من النعم، وجريان الفلك فيه، وهي السفن تحمل ما تخرجه الأرض من بلد إلى بلد، نعمة أيضا من النعم، وآية على قدرة الله سبحانه؛ لأنها تسير بالنواميس التي أودعها في خلقه تحمل نبات الغرب ومنتجاته إلى الشرق، وتحمل خيرات الشرق منه إلى الغرب، تمخر في البحار من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، وتربط العالم بعضه ببعض كأنه بلد واحد ثمراته مشتركة، وتنقل الناس من جهة إلى جهة للعلم والمعرفة والدرس والعظة والاعتبار، فقوله: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ معناه: تجري حاملة نعمة الله يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ (البقرة: ١٦٤)
والإشارة في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

عائدة إلى جميع ما ذكره الله في السورة في الآيات السابقة من خلق السماوات والأرض، إلى غير ذلك مما فصلناه قبل تفسير هذه الآية.

ذلك كله آيات بينات، ودلائل واضحات على عظمة الله سبحانه وقدرته وتفرده بالعبادة، لكنها ليست دلائل توصل إلى ما تدل عليه إلا لشخص صبار على البلاء لا تفتنه النقمة عن إدراك الحق والتوجه إلى الخالق، شكور لله على نعمة لا تلهيه النعمة عن التوجه إلى المنعم.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾
(لقمان: ٣٢)

﴿خَتَّارٍ﴾: شديد الغدر، (كفور): شديد الكفر بالنعمة أخبر الله نبيه في آية سبقت أنه إذا سأل المشركين عن خالق السماوات والأرض، اعترفوا بأنه الله، وبين في هذه الآية أنهم يعترفون بذلك أيضا إذا نزلت بهم النوازل ولم يكن لديهم سبيل إلى صرفها، فإنهم إذا كانوا في البحر وأدركهم الموج العالي كالجبال يتدافع بعضه خلف بعض ويركب بعضه بعضا، وخافوا الهلاك، وظنوا أنه لا ملجأ إلا إلى الله، دعوا الله في هذه الحالة مخلصين له الدين، مفوضين مسلمين، لا يتوجهون إلى أحد غيره، ولا يعترفون بدين غير دينه، لكن الإنسان ظالم، صوره الله أحسن تصوير في قوله:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(يونس: ١٢)

ومع هذا الظلم قد يدرك النعمة ويقدرها، وتتحرك فيه داعية الخير ويقهره الدليل، فينسيه التعصب للآباء، ولذلك فإن الله إذا نجى من في البحر ممن أدركهم الغرق، انقسموا إلى قسمين: قسم اقتصد أي اتبع القصد، وهو الطريق المستقيم، طريق الله سبحانه وطريق الحق، فوحد الله، واعترف بنعمه، واستمر على شكره، وقسم مر كأن لم يدعه إلى ضر مسه، فكفر بنعمته، وغدر أشد الغدر بعهده.

وقوله: ﴿خَتَّارٍ﴾ مقابل لقوله: ﴿صَبَّارٍ﴾ لأن شديد الغدر لا يصبر على العهد، وعلى الإقرار بالنعمة وقوله: ﴿كَفُورٌ﴾ مقابل لقوله: ﴿شَكُورٍ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣)

قرئ: يجزي بفتح الياء من جزى بمعنى قضى، وقرئ يجزى بضم الياء من أجزأ يقال: أجزأت عنك مجزأ فلان أي أغنيت عنك غناءه، والغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان ونفس أمارة بالسوء، وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ كلمة مولود مبتدأ، وجملة ﴿هُوَ جَازٍ﴾ خبر عنه.

كانت أكثر آيات السورة مشتملة على دلائل التوحيد والقدرة والعلم واستحقاق العبادة، ونفي الشريك في الخلق، والشريك في استحقاق العبادة والاستعانة، وذكر فيها البعث في قوله تعالى:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

وبعد هذا شرع الله سبحانه يعظ عباده ويخوفهم يوم البعث، ويحذرهم نفسه بهذه الآيات، ومعناها: أيها الناس: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية من عذابه، فوحدوه وأطيعوه، واحذروا ذلك اليوم الذي لا يقضي فيه ولد عن والده شيئا، ولا يغني فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده.

ذلك اليوم هو يوم البعث، ويوم الدين، ويوم الفصل، ويوم الحكم بين العباد، وهو اليوم الذي لا تنفع فيه شفاعة الشافعين:

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٤ - ٣٧)

ولا تنفع فيه الوسائل، إلا وسيلة من عمل صالح قدمه المرء في دنياه، وأسلفه لآخرته، فإن الأمر هناك بيد العزيز الذي لا يغالب والقاهر الذي لا يمانع، وإذا كان ذلك اليوم لا يقضي فيه والد عن ولده شيئا وهو أحب الناس إليه، ولا يقضي فيه ولد عن والده شيئا وهو أحب الناس إليه، فغيرهما أولى ألا يقضي وألا يحتمل.

وقد قيل في جانب الوالد: ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ وقيل في جانب الولد: ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ والجملة الثانية آكد في النفي من الجملة الأولى فعل ذلك لسببين: الأول أن علية المؤمنين إذ ذاك قبض آباؤهم على الكفر وعلى دين الجاهلية فأراد الله حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئا.

والسبب الثاني: أن الله سبحانه قرن شكر الآباء بشكره، وأوجب على الولد كفاية والده جهد استطاعته، ونفي السوء عنه، وقد يكون في ذلك ما يطمع الآباء في نفع الأبناء واحتمالهم أهوال القيامة عنهم، وذلك جدير بأن ينفي على وجه التأكيد لإزالة هذه الأوهام.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: المـراد بالوعـد هنـا ما يشـمل الوعيد، فوعد الله بالبعث في اليوم الآخر حق، ووعده بالثواب حق، ووعيده بعـذاب النار حق، كل ذلك ثابت لا يتخلف منه شـيء، والله صادق الوعد، وصادق الوعيد.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ (لقمان: ٣٣)

لا تخدعنكـم زينـة الحياة الدنيـا ولذاتها فتميلـوا إليها وتدعوا الاستعداد لما فيه النجاة والخلاص من عقاب الله ولا يخدعنكم بالله خادع من الأنس أو الجن أو وسوسة النفس الأمارة بالسوء.

ومعنـى لا يخدعنكـم بالله: لا يخدعنكم الخادع بذكر شـأن من شئونه التي تسهل المعصية، من العفو والمغفرة وسعة الرحمة.

والناس قسـمان: قسم تخدعه الدنيا من غير أن يزينها له أحد، وقسم يزين له الدنيا أحد الخادعين ويمنيه بعفو الله ورحمته، فيقول له: تمتع بها وباب التوبة مفتوح، ورحمة الله واسـعة، وهناك شفاعة العلماء والأولياء، وشـفاعة الأجـداد، وبذلـك تجمع لـذات الدنيا ولذات الآخـرة فنهى الله سبحانه عباده من أن تخدعهم الدنيا نفسها، وعن أن يخدعهم الخادعون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ (لقمان: ٣٤)

يوم السـاعة يأتي بغتـة لا يعلمه أحد من الخلـق، والله وحده هو العليـم بـه، فليحذر النـاس أن يأتي ذلـك اليوم وهـم مقيمون على الضـلال، فيصيروا من عـذاب الله وعقابه إلى ما لا قبل لهم به، والله وحده هو الذي ينزل الغيث، فهو الحقيق بالحمد، والخليق بالعبادة والشـكر، والله هـو الذي يعلم مـا في أرحام الإنـاث، ويعلم خواص

مـا فيها واسـتعدادها للخير والشـر والعلم والجهـل وغير ذلك من الصفات والأخلاق، ثم يصورها كيف شـاء، فهو المنعم بالأولاد من بنين وبنات، ولا تعلم نفس حي ماذا تكسب في غدها وماذا تعمل، ولا تـدري نفـس حي بـأي أرض تمـوت، والله هو الـذي يعلم ذلك، فإنه العليم بكل شـيء، والخبير بكل شيء، ما ظهر من الأشياء وما بطـن، فليتوجه النـاس إليه بطلب العون على عمـل الطاعات وفعل الخيرات، فهو الملهم للصواب، وهو الموفق لطريق الحق.

وعلى هذا التفسـير فالآيـة متممة للوعظ في الآية السـابقة وقد أخـرج ابن المنـذر عن عكرمة: أن رجلا يقال لـه الوارث بن عمرو، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد: متى تقوم السـاعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت اليوم ما كسـبت فماذا أكسـب غـدا؟ وقد علمت بـأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية ونقل مثله البغوي والواقدي.

فـإذا صح هذا فالآية جواب عن سـؤال حصل فعلا، وبذلك يعلم سر الاقتصار على هذه الخمسة، إذ من المعلوم أن الله سبحانه اختص بأشياء أخرى أكثر من هذه الخمسة، فهو المختص بالغيب كله:

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾

(الجن: ٢٦، ٢٧)

وهو العليم بأسرار الخلق وبدء الخلق، وهو العليم بالبعث كيف يكون، وبكل ما في الدار الآخرة، وكل ذلك مما اختص الله سبحانه به ولا يعلمه أحد إلا بإعلام الله سبحانه إياه.

أمـا إذا صرف النظر عن هذه الرواية وعن سـبب النزول فتفسـر على النحـو الـذي أسـلفناه ويمكن أن تكون جوابا عن سـؤال مقدر نشـأ عن

الآيات السابقة، وكأن سائلا سأل: متى البعث المشار إليه بقوله سبحانه:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ؟

(لقمان: ٢٨)

فأجيب بأن علم ذلك عند الله سبحانه، وعلم الساعة عنده وحده، وبعد هذا عطف عليه ما بعده من إنزال الغيث لأنه إذا كان هو الذي ينزل الغيث فعلمه عنده، ومن علم ما في الأرحام، ومن علم ما يكسبه المرء في غده، وعلم الأرض التي يموت فيها، وقد اختصت هذه الأمور بالذكر مع أن الله مختص بعلم غيرها مما لا يحصيه إلا هو سبحانه، لأن هذه الأمور مما يهتم الناس بها أكثر من غيرها.

والذي استأثر الله به في هذه الأشياء هو العلم، وقد بينا من قبل أن العلم يجب فيه المطابقة للواقع، مع الجزم وعدم التردد، فلو فرض أن شخصا أدرك بعض هذه الأشياء بطريق من الطرق، فلا يجوز أن يسمى هذا الإدراك علما، لأنه من المحال أن يصل الإنسان في الغيب إلى درجة العلم وهو الإدراك المطابق للواقع، مع نفي الشك، وعدم التردد، لكن قد يوجد الظن، وقد يظهر أن الظن كان مطابقا للواقع، غير أن الظن لا يسمى علما.

أما الأنبياء الذين يظهرهم الله على بعض الغيب، فإنهم يصلون إلى درجة من العلم وهذا لا ينافي اختصاص الله سبحانه وتعالى، لأنهم لم يصلوا إلى العلم إلا بسبب منه.

هذا ما يسره الله سبحانه من تفسير سورة لقمان والله هو القادر على إلهام الحكمة نسأله سبحانه أن يؤتينا الحكمة

﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ٢٦٩)

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(الحجرات : ١)

﴿تُقَدِّمُواْ﴾ : يصح أن يكون من تقدم المتعدي، أو من قدم بمعنى تقدم. وعلى الثاني يكون معناه : لا تتقدموه، وتحقيقه - كما قال الراغب - لا تسبقوه بالقول والحكم، بل افعلوا ما يرسمه لكم، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. وذلك لازم التقدم؛ لأن الذي يجعل لنفسه حق التقدم على أحد، يجعل لنفسه حق إبداء الرأي والسبق به، وحق المخالفة. وحكى ابن جرير أن العرب تقول : فلان يقدم بين يدي إمامه، على معنى يعجل بالأمر والنهي دونه. وعلى الأول إما أن يلاحظ تعديه إلى مفعول محذوف لقصد التعميم. ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئًا ما بين يدي الله ورسوله، قولًا أو فعلًا، وإما أن ينزل منزلة اللازم، ومعناه لا يحصل منكم تقديم، غير منظور إلى أن المقدم ماذا؟ على طريق قوله تعالى : ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ (الحديد : ٢).

ومآل المعنى على الوجوه كلها : النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله. وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وهو معنى قول الله سبحانه :

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر : ٧)

ومعنى ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ : أمامه؛ لأن المكان الذي بين العضوين

المعروفيــن هو الأمام. وحقيقة قولهم: جلســت بين يدي فلان، أن يجلس بين الجهتين المســامتتين[٤] ليمينه وشماله حتى ينظر إليه مــن غير تقليب حدقة. وذكر الرســول، باعتباره أنه المبلغ المبين، الحافظ للشريعة، والمدافع عنها.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي اجعلوا وقاية بينكم وبين ســخطه وعذابه، وهي اتبــاع أوامــره واجتناب نواهيــه، والوقوف عند الحــدود التي بينها.

(والســميع): إذا وصــف بــه الله ســبحانه كان المــراد به علمه بالمســموعات وتحريــه المجــازاة بهــا. وكل موضع أثبــت الله فيه الســمع للمؤمنيــن، أو نفاه عن الكافرين أو حــث عليه، فالقصد به إلى تصور المعنى والتفكر فيه والاعتبار به، نحو:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾

(الزمر: ١٨)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾

(التوبة: ٦)

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

(النحل: ٦٥)

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

والله يعلــم المســموعات، ويعلــم المــراد منهــا، ويعلــم ما في الضمير، وما توسوس بهٍ النفوس، لا تخفى عليه خافية.

وهذه الآية تقرر أصلًا عظيمًا من أصول الإسـلام، وهو أن الحكم

---

(٤) سامَتَهُ: قابله ووازاهُ وواجَهَهُ (معجم المعاني الجامع).

لله وحـده، لا معقـب لحكمه، وهو أحكـم الحاكميـن. ويقرر هذا الأصل أتم تقرير قوله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(النحل: ١١٦، ١١٧)

وقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

(النساء: ٥٩)

وطاعـة الله سـبحانه هـي العمل بما فـي كتابه، وما بينه رسـوله ﷺ، وطاعـة الرسـول في الحقيقة طاعة لله، وذكـر باعتبار أنه مبلغ ومبين. أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستثمرونه في الحوادث، ويفهمون سنة رسوله القولية والفعلية، فهم قادة الأمة في الدين، الذين يدركون أسراره، ويفهمون أغراضه، ويحيطون بأحوال زمانهـم وأمتهم إحاطـة تمكنهم من تطبيق الكتاب والسـنة تطبيقًا صحيحًا، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة، في دائرة الكتاب والسـنة، وذلك معنى الرد إلى الله ورسـوله. وعلى

هذا جرى سلف الأمة واستثمر العلماء نصوص الكتاب والسنة، ووضعوا قوانين الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم، ولم يكن لهم شهوة في الخلاف، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله، لكن الأحداث غيرت مجرى الأمور، وحب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق، وكان أصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم إلى الدين ليقال إنهم على الحق، غير خارجين على حدود الله، فتعسف الناس في التأويل، وجدّت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة، ويتجافى عنها الدين، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها، تعصب لها أصحابها على علم بضلالها، وتعصب لها مقلدوها على علم أو جهل وحسن نية، فتفرق المسلمون فرقًا وأحزابًا، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها، وتجيز قتالها وهدمها، ولم يكن مثل هذا معروفًا في صدر الإسلام، وعند صالحي الأمة وكبار الأئمة.

جرت الأمور على هذا النحو، فضعف شأن المسلمين، وقاتل بعضهم بعضًا، ثم وهنت العزائم، وأحبوا الحياة، وتحللوا من الأوامر والنواهي الإلهية، إما بالخروج عليها ظاهرًا جهارًا، وإما بالخروج عليها تأويلاً، وتقطعت بينهم الروابط، ونسوا الوحدة، ونسوا لوازم الأخوة الإسلامية التي عقدها الله في كتابه بين المسلمين.

هذا شأن المسلمين اليوم، وقبل اليوم بقرون، ولا نجاة لهم إلا بالرجوع إلى الله، وتفهم كتاب الله، والعمل بما سنه رسول الله. ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم، كلا! فإن في دينهم من الأخلاق الكاملة الفاضلة، ومن الحث على العلم، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للإنسان، ومن النظم الدقيقة للمجتمع، ومن الأوامر التي تحث على البذل والصدقة، والتضحية في سبيل الحق - ما لا يوجد عند غيرهم. ومن الحق أنهم تركوا

دينهم فذلوا، وتركوا هدي الرسول فضلوا. ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين، وتبصرهم أن الخروج عن الأديان، واتباع المذاهب الضالة، هو سبب ما في العالم من شرور قد تطوح بالإنسانية إلى الدرك الأسفل، كما تطوح بأصحابها في الآخرة إلى النار.

لعل هذه العبرة توقظ النائم، وتنبه الغافل، وتحرك الجامد، ولعل نفحة من قبل الله تهب فتعدهم لتلقي النور الإلهي، وتحملهم على الرجوع إلى الهدي النبوي، وما ذلك على الله بعزيز.

وجملة ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾: تدل بعد ما تقدم على الحضور، والله سبحانه حاضر دائمًا مع العباد:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧)

وإذا عرفت أن الآية جاءت لتقرير أصل من أصول الإسلام عظيم، وبيان ما يجب من الأدب مع الله سبحانه، فلا يعنينا بعد ذلك أن نبين سبب النزول، وأن نذكر أنها نزلت في مماراة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فيمن يكون أمير وفد تميم، أو في ذبيحة الأضحية، أو في النهي عن صوم يوم الشك، أو في غير ذلك.

وبضم التاء في «تقدموا» قرأ قراء الأمصار. وقال ابن جرير: لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة من القراء عليها. وقرأ بعضهم «لا تقدموا» بفتح التاء، على معنى لا تتقدموا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾
(الحجرات: ٢)

ظهور الشيء بإفراط لحاسة السمع أو حاسة البصر : جهر . فمن الأول :

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾

(الرعد : ١٠)

ومن الثاني : رأيته جهارًا ، و﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ (النساء : ١٥٣) .

والحَبْطُ : مأخوذ من الحَبَط ، وهو أن تكثر الدابة من الأكل حتى ينتفخ بطنها . وفي الحديث «إنَّ مِمّا يُنْبِتُ الرَبيعُ ما يَقْتُلُ حَبطًا أو يُلِمُّ» (صحيح مسلم) .

وحبوط الأعمال على أضرب:

أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر فلا تغني في الآخرة شيئًا ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾

(الفرقان : ٢٣)

والثاني : أن تكون أعمالًا أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روي أنه «يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به إلى النار» (صحيح مسلم) .

والثالث : أن يكون أعمالًا صالحة ولكن توجد بإزائها سيئات تطغى عليها .

كانت الآية السابقة لبيان الأدب مع الله ، وهذه الآية وآيات بعدها لبيان الأدب مع النبي ﷺ . فقد أمر الله المؤمنين ألا يجعلوا أصواتهم عند الحديث مع الرسول الأكرم مرتفعة فوق صوته ، وألا يكون خطابهم إياه كخطاب بعضهم بعضًا في الجهر وعلو الصوت . وقد قيل : إن الأول يخص حال المكالمة ، والثاني حال صمته عليه السلام . وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ، ولا

تجهـروا له عند دعائه إذا سـكت وتكلمتم. ويلزم مـن هذا كله أن يكـون صوتهم أخفض مـن صوته، وأن يراعوا فـي دعائه ومخاطبته الليـن في القول، أدبًا مع مقام النبوة وجلالها. ولعل وجهه أن النهي عـن رفـع صوتهم فوق صوته ﷺ يسـتلزم حتمًـا ألا يكون خطابهم معـه كخطاب بعضهم بعضا، فلو لم يحمل أحد النهيين على حالة، والآخر علـى حالة أخرى، لـزم التكرار، وأن يكـون الثاني تأكيدًا، والظاهـر أنه لا داعي إلى هذا؛ لأن الأول أفاد النهي عن رفع الصوت فـوق صوته، وهـو وإن تضمن مـا تضمنه الثاني، لكـن الثاني يفيد دلالة أن مقامه ليس كمقامهم، وأن ما يليق بهم في التخاطب لا يليق بـه، وأن الخطاب معه يجـب أن يكون على حال مـن الأدب واللين والرقة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن.

نُهُـوا عـن ذلك مخافة بطـلان أعمالهم، وذهابها سـدى من غير مثوبة ولا جزاء، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة، وذلك لأن النهي جعل الجهر معصية، لكن العادة قد تجعل الإنسان غافلًا عما في المنهي عنه من سوء، وبخاصة إذا كانت العادة متأصلة، وقد كان القوم جفاة غلاظا قريبي عهد بالتبدي، ومن عادة التبدي الجفاء في الخطاب، والإغلاظ في القول.

أدبهـم الله بهذا الأدب، ونهاهم عمـا يؤذي النبي ﷺ، ولم يكن النبـي جبارًا ولا متكبرًا، بـل كان جم التواضع، كثير الحياء، توقفه الأَمَة في الطريق لتحدثه فلا يتركها حتى تتركه، وقال: «إنما أنا ولد امرأة كانت تأكل القديد» (سـنن ابن ماجه)، لكن الرسـول الأكرم كان كثير الفكر والهم، كثير الشواغل، يتلقى الوحي من ربه ويبلغه ويبينه، ويسـوس المسـلمين دنيا وأخرى. يفكر فـي عزتهم ودفع الأذى عنهـم، ويفكـر في حـرب من يحاربه، وسـلم من يسـالمه،

ويفكر في توفير الخير للمسلمين، وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره، ومن كان هذا حاله وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة، وأن يباعد عنه كل شيء مشوش للخاطر.

أدبهم الله هذا الأدب مع الرسول، ونهاهم عن الغلظة، ومن شأن النهي أن يردعهم، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب في القول، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره، فهذا الأدب كما أنه أدب مع الرسول، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض. ولا تجد رجلاً لين القول سهلاً عند الحديث إلا وهو ذو نفس مهذبة صقلته الأيام، وفاض عليه طيب عنصره وكرم أرومته مما جعله محببًا عند الناس.

وعلى العاقل أن يرعى أخلاقه، ويداوم على التنبه إليها، وقد يكون ارتكاب محرم ما داعيًا إلى استمرائه والاسترسال فيه، فتتكثر السيئات، وتحبط الأعمال من حيث لا يشعر، فالرذيلة تكون أولاً حالاً، ثم تصير ملكة، وكذلك الفضيلة. وقد نقل عن أفلاطون: لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق وأنت لا تدري، وقد روي أن أبا بكر -رضي الله عنه- بعد نزول هذه الآية قال: يا رسول الله: والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله! وكان إذا قدم على رسول الله ﷺ الوفود، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون، ويأمرهم بالسكينة. وقد روي أيضًا أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية، جلس في بيته يبكي، وقال: إني رجل جهير الصوت، وأخاف أن يكون قد حبط عملي! فبعث إليه ﷺ وقال: إنك لست من أهل النار، تعيش بخير، وتموت بخير. (المعجم الكبير للطبراني ٢ / ٧٠) وقد مات شهيدًا، رضي الله عنه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٣)

الغض: النقصان من الطرف والصوت، ومنه:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾

(النور: ٣٠)

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾

(لقمان: ١٩)

والامتحان في الأصل: إذابة الذهب ليخلص إبريزه من الخبث وينقى منه. ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة، يقال: امتحن فلانًا لأمر كذا فوجده قويًا عليه، أي جربه. ويلزم من هذا معرفته.

تضمنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت، وتضمنت هذه الترغيب في القول اللين، فقد جُعِل جزاؤه المغفرة والأجر العظيم.

والمعنى: إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفاها وأعدها للتقوى، أو عرف الله قلوبهم معدّة للتقوى بعد الاختبار، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح عما اقترفوه من السيئات، ولهم أجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

(الحجرات: ٤، ٥)

الحجرة: القطعة من الأرض تحجر، أي يمنع من الدخول فيها بحائط أو نحوه.

ووراء: فيه معنى المواراة والاستتار، فكل ما استتر فهو وراء، خلفًا كان أو قدامًا، إذا لم تره فالوراء بالنسبة للحجرات: ما كان خارجها.

وقد أخرج البخاري في الأدب عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارجها بمسوح الشعر.

وعن الحسن: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي، وقد أُدْخِلَتْ في المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك، وبكى الناس لذلك.

وقد قال سعيد بن المسيب إذّاك: والله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبي ﷺ في حياته، فيكون ذلك داعيًا إلى ترك التفاخر والتكاثر.

وعن زيد بن أرقم: جاء أناس من العرب إلى النبي ﷺ، فقال بعضهم لبعض، انطلقوا بِنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًا فنحن أسعد الناس، وإن يكن ملكا عشنا في جناحه، ثم جاءوا إلى حجر النبي ﷺ ينادونه: يا محمد، فأنزل الله هذه الآية، وقد تأذى الرسول ﷺ من ندائهم على هذه الصفة.

وقد حكم الله على أكثرهم بعدم العقل، إما لأن فيهم من لم يكن موافقًا، أو لأنه أقام الأكثر مقام الكل، على عادة البلغاء في عباراتهم، وعدم العقل جاء من ناحية الجهل بقانون الأدب في النداء، والجهل بما ينبغي أن يكون عليه الطالب، من تخير الوقت، وتخير المكان، وتخير العبارة. وقد كان -عليه السلام- لا يحتجب عن الناس إلا حيث تتقاضاه دواعيه الخاصة في بيته، فليس من الحق ولا من الأدب ألا تترك له الفرصة للاستجمام.

ولو أن هؤلاء صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرًا لهم، لكن الله غفور: يغفر مثل هذه الزلات التي لم تصدر عن سوء قصد، ولم يكن سببها إلا تلك الطبيعة الجافة التي لم تهذب من قبل بعلم ولا دين. ورحيم: يرحم مثل هؤلاء، ومن رحمته أن ينزل من الآيات الخالدة، ما يؤدب عباده بالأدب الذي ترضاه النفوس الكريمة،

والطباع الشـريفة. وهكذا يدخل القرآن في شئون العباد، فيعلمهم طريق النداء، وطريق الاستئذان. وقد حكي عن ابن عبيد: ما دققت بابا على عالم حتى يخرج في وقت خروجه.

وكان ابن عباس يذهب إلى أبيّ في بيته لأخذ القرآن عنه، فيقف عند الباب ولا يدق الباب حتى يخرج.

هكذا فعل القرآن، وصقل الناس بأدبه الكريم، وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن، وتهتدي بهديه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾

(الحجرات: ٦)

فسق فلان: خرج عن حجر الشرع، مأخوذ من قولهم: فسق الرطب، إذا خرج عن قشره. يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرا، وهو أعم من الكفر، لكن أكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقرَّ به ثم أخلَّ بأحكامه كلها أو بعضها. وقوله تعالى:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ ﴾

(السجدة: ١٨)

يدل على أن الفسق أعم من الكفر؛ لأنه قابل به الإيمان.

والبيان: الكشف عن الشيء، وبينته وأبنته، إذا جعلت له بيانا يكشفه، والتبين: التعرف وطلب البيان. والندم: التحسر من خطأ الرأي في أمر فائت. والتركيب يدل على الملازمة، ومنه المنادمة والمداومة. فالندم: تحسر يلازم صاحبه. وعامة قراء المدينة: فتثبتوا. وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، وقد روي أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن

عقبة في صدقات بني المصطلق، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقائه، تعظيما لمن بعثه رسـول الله، فحدثه الشـيطان أنهم قاتلوه، فرجع وقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، فأغضب ذلك النبي والمسـلمين معه، وهَمّ بغزوهـم، فلما بلغهم رجوع ابـن عقبة أتوا رسـول الله ﷺ وصفـوا له حين صلاة الظهر، وقالـوا: نعوذ بالله من سـخط الله وسخط رسوله! بعثت إلينا مصدقا فسررنا وقرت أعيننا، ثـم رجـع من بعـض الطريق فخشـينا أن يكون ذلـك لغضب من الله ورسـوله، فلم يزالـوا يكلمونه حتى جاء بـلال وأذن لصلاة العصر، ثم نزلت الآية.

وأيا ما كان سـبب النزول، فالآية تقرر أصلا عظيما له خطره في الحيـاة. وكم فرق الكذب بيـن الأصدقاء، وكم سـفك من الدماء، وكم شـن من غارات، وأثار إحنًا وتِرَات، وكم فرق العشائر، وذهب بالأنفـس والأموال! لذلـك كان للصدق من المكانـة ما جعل النبي عليه السـلام يقول فيه: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلـى الجنة» (صحيح البخاري)، وكان للكـذب من الرداءة والحطة مـا جعل النبي -عليه السـلام- يقـول فيه: «إن الكـذب يهدي إلى الفجـور، وإن الفجور يهدي إلى النـار» (صحيح البخاري)، ألا لعنة الله على الكاذبين!

وخطر الأخبار لا يجيء من ناحية الفسـق وتعمد الكذب وحده، بـل يجـيء من نواح أخـرى، فقد يكون الرجل عـدلا لكنه لا يعرف كيـف يسـمع الأخبـار ولا كيـف ينقلهـا، فلا يحسـن السـمع ولا يحسـن الأداء، وقد يكـون الرجل عدلا ذا غفلة فتـدس إليه الأخبار من الكاذبين وينقلهـا على ظن الصدق، والتثبت من الأخبار فضيلة ليسـت كثيرة عند النـاس، وأكثر الناس يقعون فـي تصديق الأخبار

من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار.

وكثيرا ما يقع عدم التثبت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر، يجيئهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم، وهو مدخل للخطر عظيم.

والذين هم في أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية، هم الذين بيدهم مقاليد الأمور، وبيدهم الضر والنفع، أما الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا فحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء.

والآية على العموم أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس، وإعدادها لتعرف الحق، والبعد عن مواطن الباطل.

ولو أن النبي ﷺ عمل بقول ابن عقبة لَغَزَا قوما مؤمنين يحبون الله ورسوله، وسفك منهم دماء، وأخذ منهم أموالا بغير حق.

فالله تعالى يرشد عباده إلى هذا الأدب الكامل، ويحذرهم أن يعملوا بالأخبار قبل الكشف عنها، وقبل التثبت، لئلا يصيبوا أقواما بسبب الجهل، وبسبب الأخبار الكاذبة التي لا تفيد علما عند العقلاء، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين، يلازمهم الحزن على ما فرط منهم. فيجب الكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة، ويجب على المؤمن أن يتعلم طرق الكشف عن الأخبار، ويروض نفسه عليها. وقد قال الحسن: فوالله لئن كانت الآية نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء. والنبأ: هو الخبر العظيم. أما الأخبار التافهة التي لا يترتب شيء عليها، فهي في غير حاجة إلى التبين والتثبت:

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
(الحجرات: ٧، ٨)

العنت: الجهد والمشقة والهلاك. والزينة ثلاثة أنواع: نفسية كالعلم، وبدنية كالقوة وطول القامة، وخارجة عنهما كالجاه والمال.

كفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة، أو ثلاثتها. وقد يقال: كفر، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله، نحو ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ إذ هو مقابل لقوله:

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾
(الروم: ٤٤)

والذي تنطوي عليه الطبيعة الإنسانية هو كفران النعمة وعدم القيام بشكرها، يدل عليه:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾
(الزخرف: ١٥)

لكنه قد يخرج بالتعليم والتهذيب وتقويم الدين إلى حالة أخرى، وذلك هو المقصود بقوله تعالى:

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾

فهؤلاء صحابته ﷺ فاض عليهم نوره، وغمرهم أدبه، وهذبهم تعليمه ورياضته، فحبب إليهم الإيمان، وصار زينة عندهم، وكرهوا الكفر والفسوق، والعصيان.

﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾: خروج عن الطاعة. ويقال لمن فارق الجماعة: شق عصا الطاعة. وأصله أن يمتنع الرجل بعصاه.

(الرشد) : خلاف الغي، يستعمل استعمال الهداية. وقيل الرشد في الأمور الدنيوية والأخروية، والرشد في الأمور الأخروية لا غير. والراشد والرشيد يقال فيهما جميعا.

(والحكمة) : إصابة الحق بالعلم والعقل. والحكمة بالنسبة لله: علم الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام، وبالنسبة للإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات.

تذكر الروايات التي رويت في قصة ابن عقبة وبني المصطلق، أن النبي -عليه السلام- حدثته نفسه بغزوهم، وأنه غضب على بني المصطلق بعد أن سمع خبر ابن عقبة، وأنه لم يصدق وفدهم عند حضوره إلا بعد نزول الآية، وأنه بعث خالدا وأمره باستطلاع حالهم، وعدم العجلة في حربهم، وأن من المسلمين من حسّن غزوَهم، ومنهم من كان مع الرسول في التريث والتثبت.

وقد دعا هذا بعض المفسرين إلى توزيع الخطاب، فجعل قوله:

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

لمن كان همه غزوهم ومطالبة الرسول به، وقوله:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾

للفريق الذي لم يطالبه بالغزو وكان معه في التريث وطلب التثبت، ورأوا أنه لا يصح أن يكون المخاطبون واحدا في الطرفين؛ لأنه ذكر أولا أن طاعتهم توجب العنت، وذكر ثانيا أنه حبب إليهم الإيمان، وكره الفسوق والعصيان، والأمران متناقضان لا يجتمعان في فريق واحد. غير أن توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق ببلاغة القرآن وإعجازه، وليس هناك ضرورة تدعو إليه، وسيُعْلَم ذلك مما يأتي: بعد أن حذر الله المؤمنين أخبار الفاسقين، نبههم إلى أن الرسول بينهم، وليس المقصود ظاهر الخبر؛ لأن ذلك معروف بالعيان، بل المقصود لازمه

وهـو وجوب التحرز مـن الكذب وتوقيه ؛ لأن المؤمنين ورئيسـهم الأعظـم بينهم، يجب أن يكونـوا بعيدين عن الدنايا، وعن الكذب الذي يؤدي إلى المفاسـد، ويجر إلى ويلات قد يشـترك فيها النبي الأكـرم، ولا يليـق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمـه، أن يوقعه في مثل هـذا الخطـر الذي يؤدي إليـه الكذب، وهذا الحـب وهذا الإجلال يدعـو إلى الاحتراس من وقوع المحبوب فيمـا لا يليق أن يقع فيه. والإعلام بأن فيهم رسـول الله، تنبيه لهم على وجود المرشـد الذي يجب اتباعه، وتجب طاعته. وبذلك عاد الحديث إلى الطاعة، وإلى عدم السـبق بالرأي، والتعجل في الحكم، وهو موضوع أول آية في السورة.

والسر في ذلك الوجوب: هو أن الرسول مبلغ أمر الله، ومبين له، وأنـه أدرى بالأغراض الإلهية، وأدرى بمصالح الأمة وما ينفعها، من كل مـن كان حوله، يؤيده الوحي، ويمده النور الإلهي، ومقامه مقام المتبـوع، ومقامهم مقـام التابع، فيجب أن يطيعـوه لا أن يطيعهم، ولـو أن الأمر انعكس وأطاعهم لنالهم من طاعته إياهم عنت وجهد، ومشـقة وهـلاك، ولكن ذلك لا يكـون؛ لأن رسـول الله ﷺ بحكم منصبـه، لا يتبـع إلا ما يوحـى إليه من ربـه، وهذا مبـدأ معروف لم يجـر حديث عنه في الآيـة، ولأن جماعة المؤمنيـن بحكم إيمانهم لا يرضـون ذلـك ولا يطالبون بـه؛ لأن الله حبب إليهـم الإيمان بالله ورسـوله، وذلـك يسـتدعي طاعة الله، وطاعة رسـوله، وحسـنه في قلوبهم فهو لاصق بها، وكره إليهم الكفر بالله ورسوله، وكره إليهم الخروج عن الطاعة، وركوب ما نهى الله عنه، وقد جرت عادة القرآن أن يخاطـب الجميـع ولو كان الذي فعل الفعـل البعض، تنبيها على أن المسلمين يعدون وحدة وإن كثرت الأعداد، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع.

ومن المفسرين من حمل الفسوق على الكبائر، والعصيان على الصغائر.
وقد نقل عن ابن زيد: الفاسق في كتاب الله كله: الكاذب. ولذلك حمل الفسوق على الكذب، والعصيان على الإخلال بالأركان.

ثم وصف الله سبحانه من حبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر، على طريق الالتفات، بأنهم الراشدون، السالكون طريق الحق، المهتدون إليه، وبيَّن أنه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم. وقد قيل: إن الفعل إذا نظر إلى صدوره من جانب الحق سمي فضلا، وإذا نظر إلى وصوله إلى العبد سمي نعمة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بأحوال الخلق، وبالمحسن منهم والمسيء، ومن هو أهل لفضله، ومن ليس أهلا للفضل. وحكيم: يضع الأشياء موضعها.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾
(الحجرات: ٩)

الطائفة من الناس: جماعة منهم، ومن الشيء: قطعة منه، وهي جمع طائف، وقد يكنى بالجمع عن الواحد، فيراد بها الواحد.

﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى فيه، سواء تجاوزه أم لم يتجاوزه. وهو قسمان: محمود، ومذموم. فالأول: تجاوز العدل إلى الإحسان، والثاني: تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوز الحق إلى الشبه، وقد قال عليه السلام: «الحق[٥] بين

(٥) المشهور في الرواية: (الحلال بين والحرام بين.. إلخ) والرواية المذكورة ساقها الراغب في مفرداته.

والباطل بين، وبين ذلك مشتبهات، ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه». وقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (الشورى: ٤٢)

دليل على أن هناك بغيا بالحق.

والفيء والفيأة: الرجوع إلى حالة محمودة. والعدل: هو التقسيط على سواء، وهو مساواة في المكافأة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. والإحسان: مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بأقل منه. ويقال: قسط الرجل، إذا جار فأخذ قسط غيره، وأقسط، إذا عدل فأعطى قسط غيره.

روي عن ابن عباس أن الآية في الرجلين، أو النفر والنفر، أو القبيلة والقبيلة من أهل الإسلام: يقتتلان، فأمر الله تعالى أئمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذي أنزله الله في كتابه: إما القصاص والقود، وإما العقل والدية، فإن بغت إحداهما على الأخرى بعد ذلك، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله. وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان في الآية واجب الإمام؛ لأنه قائم مقام المسلمين، ونائب عنهم، وخليفتهم، فإذا وجد بلد لا يمتد إليه سلطان إمام المسلمين، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الإمام. ولجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة في كتب المذاهب. وروى الزهري عن سالم عن رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» (صحيح البخاري).

وعلى هذا فإذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين، فعلى الإمام الإصلاح بينهما، بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه، وبالنصح وإزالة الشبهة، فإن تعدت إحداهما ما جعله الله عدلا بين

خلقــه، وطلبت العلــو بغير الحق، ورضيت بــه الطائفة الأخرى، قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم كتاب الله، فإن رجعت بعد القتال، أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإنصاف، ولا يكتفى بالمتاركة والمحاجزة والكف عن القتال، بل لا بد من الإصلاح بالعدل، لتزول الضغينة، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك إلى القتال. والله تعالى يحب المقسطين، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم.

تُقَاتَــلُ الفئــةُ الباغيةُ مــا قاتلت، فإذا قبضــت أيديها عن الحرب وكفت، تُركَتْ، وإذا ولت وركنت إلى الفرار لا يجهز على جريحها، ولا يقتــل أَسـيرها ولا يطلــب هاربها، ولا يقســم فيئهــا، وإن بغى الفئتان معا، أصلح بينهما على الطريقة التي يراها المسلمون كافلة للموادعــة والمكافــة، فإن لــم تتحاجزا وأقامتا علــى البغي، وجبت مقاتلتهمــا معــاً؛ لأن البغي فســاد في الأرض، وخروج على الســنن الإلهية، وتعدٍّ على العدل الذي يحبه الله ويأمر به، وعلى المسلمين أن يطهروا الأرض من البغي والفساد، لتعمر بالعدل والإحسان.

هكذا يطلب الله من المســلمين أن يكونوا حراسا للعدل، وقواما عليــه. ومن حق من يضعه الله في هذا الموضع، ويمنحه هذه الدرجة من الشــرف، أن يعد نفسه لهذا الشرف، وأن يقدم كل شيء يملكه تلبية لهذا الواجب الرفيع الشأن، من نفس ومال.

وإن اقتتل فئتان بشــبهة دخلت عليهما، وكلتاهما ترى نفســها محقة، وجب إزالة الشــبهة وإطلاعهما على مراشد الحق، فإن ركبتا متن الغواية واللجاجة، ولم تعملا بما هديتا إليه ونصحتا به، اعتبرتا في حكم الباغيتين.

وللفقهــاء أحــكام مفصلــة فيمــا يتلفــه العــادل علــى الباغــي، وبالعكس. ولا بأس من ذكر بعضها هنا إجمالا:

أمــا المتلفات في غير القتال فمضمونــة، على القواعد الممهدة

في قصاص النفوس وغرامة الأموال. وأما متلفات القتال فلا تضمن، لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال، ولا يضمن الباغي لأن إزالة الضغينة وحب الإسراع في وقف القتال يدعوان إلى التسامح فيما أتلف من نفس ومال. وعلى ذلك كانت الوقائع التي جرت في عصر الصحابة والتابعين، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال. لكن الأموال المأخوذة في القتال ترد بعد انقضاء الحرب إلى أهلها من الجانبين. وهذا كله في البغاة الذين لهم شوكة من عدد وعدة، ولهم تأويل باطل، أما الذين لا شوكة لهم فهم في حكم قطاع الطريق، عليهم ضمان ما أتلفوه من نفس ومال.

والذين لهم شوكة وليس لهم تأويل، اختلف الفقهاء فيهم، فمنهم من ضَمَّنَهُم، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه:

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

ومنهم من نفى الضمان عنهم.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾

(الحجرات: ١٠)

في هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح في الآية السابقة، وبيان للعلة فيه. ذلك أن الإيمان عقد بين أهله، من السبب القريب، والنسب اللاصق، ما هو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها، لم ينقص عنها، ولم يتقاصر عن غايتها. وقد جرت العادة بين الناس على أنه إذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد[٦] لزم سائر الناس أن ينهضوا في إزالته ورفعه، ويمشوا بالصلح بينهما أن يرقعوا ما وهى من الوفاق، فالأخوة في الدين أحق بذلك وأحق بأكثر منه.

---

(٦) مَصْدَر وَلَدَ

وعن النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله، ولا يعيبه، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه» (المقاصد الحسنة للإمام السخاوي) وطلب الله بعد عقد الأخوة بين المؤمنين أن يتقوه، وبين أن تقواه سبيل التواصل والتراحم وأن هذا سبب وصول رحمة الله إليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)

السخرية: الاستهزاء والنظر إلى المسخور منه بعين النقص واحتقاره قولًا أو فعلًا بحضرته.

والقوم: الرجال خاصة لأنهم القائمون على شئون النساء ومنه قول زهير:

أقوم آل حصن أم نساء

وأما قوم فرعون وقوم نوح عادة فمن باب تغليب الذكور على الإناث.

واللمز: الطعن والضرب باللسان والتنبيه على المعايب في حضرته ولا يدخل في مفهومه قصد الاحتقار كما يدخل في السخرية وهذا هو الفارق بينهما.

والتنابز بالألقاب: التداعي بها، والاسم: معناه الذكر، مأخوذ من قولهم: طار اسمه في الآفاق.

ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس، وقد جاء النهي في الآية منصبًا

على سخرية القوم من القوم والنساء من النساء بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية في المجامع ومن أن القوم يسخرون من القوم والنساء من النساء على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوي على النهي عن السخرية على أي وجه من الوجوه.

ثم بين الله تعالى العلة في النهي وهي أن المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر في الواقع ونفس الأمر عند الله، لأن الناس لايطلعون إلا على ظواهر الأمور ولا علم لهم بالخفيات وليس هناك شيء يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر، وهو وحده الذي يعلمها ولا علم للعباد بشيء منها، فلا يجوز لأحد أن يجترئ على السخرية بأحد ولو كان ممن تزدريه العيون لرثاثة حاله وقلة ماله وقبح صورته وعي اللسان وفهاهته[7] فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلبًا وأطهر سريرة ولعله يحمل بين جنبيه نفسًا كريمة شريفة الخصال كاملة الخلق مهذبة بالعلم ولعله في هذا كله أحسن حالا من الساخر وفي السخرية ظلم بتحقير من هو في نفسه عظيم لا يستحق التحقير.

ثم نهى الله المؤمنين عن اللمز والطعن وعن نداء بعضهم بعضًا بما يكرهونه من الألقاب ونبههم إلى أنهم وهم كنفس واحدة وكجسد واحد لا يليق أن يطعن بعضهم بعضًا لأن الطاعن في هذه الحالة يطعن نفسه ويطعن جسده وهذا هو السر في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾

مع أن اللامز إنما يلمز غيره لا نفسه، وذهب صاحب الكشاف إلى أن المعنى: وخصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهي عن اللمز ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على سيرتكم وهم المجاهرون

(٧) مصدر فهّ، وفهّ الشخص: عجز عن الكلام. (المجلة)

بالفسق وفي الأثر: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس». (مأثور عن الحسن البصري)

وقد روي أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء إليه ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن وقال عمر: أشيعوا الكنى فإنها منبهة وقل من تجده من المشاهير في الجاهلية أو الإسلام ولا تجد له لقبًا حسنًا أو كنية: كالعتيق لأبي بكر والفاروق لعمر وسيف الله لخالد.

ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجري في الأمم كلها في تخاطبهم وكتابتهم من غير نكير.

تقدم النهي عن التلقيب بما هو مكروه ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما ممن له به صلة وروي عن الحسن: أَدْرَكْنَا السلف وهم يرون العبادة الكف عن أعراض الناس وقد قال الله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة: ١)

والهمزة: الطعان في الناس.

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية واللمز والتداعي بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله فلا يليق بالمؤمن الذي حل قلبه الإيمان أن يطلق عليه كلمة فاسق وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عرف بالإيمان.

فمعنى

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾:

بئس الذكر أن يذكر المؤمن بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان أي أنه لا ينبغي اجتماع هذين الوصفين: الإيمان والفسق كقولهم: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة وهم يريدون استقباح الجمع بين الصبوة

ـ أي ما يكون في حال الشباب من الميل إلى الجهل ـ وكبر السن.
وينبغي أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه، وقد تدعو إليه الضرورة فيذكر لا على قصد التحقير كما يقول المحدثون: سليمان الأعمش وواصل الأحدب وفي هذه الحالة لا ينهى عنه.
ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبة لازمة كالتوبة عن سائر المعاصي وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه لأنه عرضها لسخط الله وعذابه.
وينبغي أن نذكر هنا كلمة عن التوبة: فهي ليست قول الشخص: أستغفر الله وأتوب إليه كلا! هذا القول لا يسمى توبة ولا هو الذي يطلبه الله سبحانه ويحبه:
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)
والتوبة تستدعي معرفة عظم ضرر الذنوب والإدمان عليها، وتستدعي ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الإنسان بوصول الألم إلى العظم وحزه فيه وبأن كبده تكاد تذوب وبأن الكرب يحيط به ولا مفرج له إلا الله سبحانه وتستدعي العزم على ترك الذنب والإقلاع عنه.
فحقيقة التوبة: علم وندم وقصد وإذا فقد أحدها فُقِدَتْ وغير خاف أن معرفة كون المعاصي مهلكات جزء من الإيمان وعدم المبادرة إلى التوبة مفوت لجزء من أجزاء الإيمان ولو كان الإيمان كاملًا لما أقدم مؤمن على معصية.
وهذا يفسر قول النبي ﷺ: «ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» (صحيح البخاري) ولابد في التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(النساء : ١٧ ، ١٨)

وقد يسترسل المذنب في ذنوبه حتى تصير طبعًا، ويران على القلب فلا تحله الندامة على الذنب ولا القصد إلى الخلوص منه فإذا قال صاحب هذا القلب : إني تبت إليك كان قوله كقول القصاب الذي يغسل الثياب : إني غسلت الثوب دون أن يغسله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الحجرات : ١٢)

اجتنبه : كان على جانب منه ثم شاع في التباعد اللازم له.

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة قوية أو ضعيفة فإن قويت جداً أدت إلى العلم وإن ضعفت جدًا لم تتجاوز حد الوهم.

والإثم : الفعل المبطئ عن الثواب وجمعه آثام وقوله :

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾

(البقرة : ٢٠٦)

معناه : حملته على فعل ما يؤثم والآثم : الذي يحتمل الإثم.

والجس : مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم، وهو أخص من الحس فإن الحس تعرف ما يدركه الحس

ويرى بعضهم أنهما متقاربان وأن مشاعر الإِنسان يقال لها الجواس، كما يقال لها الحواس.

والغيبة: أن يذكر الإِنسان غيره بسوء وبما فيه من عيب في غيبته من غير أن يُحْوج إلى ذلك، وقد سئل ﷺ عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه فإِن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» (صحيح مسلم).

من الظن ما يباح اتباعه: كالظن في أمور المعاش وما أشبه ذلك ومنه ما يجب اتباعه: كالظن في الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ومنه ما يحرم اتباعه: كالظن في الإِلهيات والنبوات، والظن حيث يوجد دليل شرعي قطعي يخالفه، ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه وأن تظن به السوء.

والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، أما حديث النفس والخواطر والشك فكل ذلك معفو عنه، والمنهي عنه ركون النفس وميل القلب، والأسرار لا يعلمها إلا علّام الغيوب فليس لك أن تعتقد سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان أو ثبت ببرهان، أما ما لم تشاهده ولم تسمعه في أذنك بل وقع في قلبك فالشيطان يلقيه والشيطان فاسق كاذب ولا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بينة عادلة وأمارة سوء الظن وعقد القلب تغير القلب عما كان، نعم قد يعذر الإِنسان في ظن السوء إذا أخبره العدل الثقة.

هذا الذي سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ومن أونست فيه الأمانة أو شوهد منه التستر، أما المجاهر بالمعاصي ومن يتعاطى الريب فلا يحرم سوء الظن به وإن لم يره الظان على معصية لأنه مكن من صفحته وأزال حرمة عرضه.

ومـن الظن ما هو قهري غير مسـتطاع الدفع فـلا يتعلق به النهي لعدم القدرة عليه بل يتعلق بعدم العمل بموجبه.

وقد يظن شـخص أن أحداً يريد به سـوءًا فهذا الظان لا يضره أن يحترس لكن يضره أن يوقع أذى بالمظنون منه السـوء، وعن سـعيد بن المسـيب قال: كتب إليَّ بعض إخواني: «أن ضع أمر أخيك على أحسـنه مـا لم يأتـك ما يغلبـك ولا تظننَّ بكلمة خرجـت من امرئ مسـلم شرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً ومن عَرّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسـه، ومن كتم سـره كانت الخيرة في يده، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسـابهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة عند عظيم البلاء، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب».

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين لأنه مدعاة إلى التحقير والسخرية واللمز ومدعاة إلى إيقاع الضرر بالمظنون به وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة وقد صان الله عرض المسـلم كما صان دمه وقد عرف مما سبق وجه قول الله:

﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا﴾

فإن بعض الظن يباح اتباعه وبعضه يجب اتباعه.

نهـى الله عـن ظـنِّ السـوء ونهى عـن التجسـس وتتبـع عورات المسـلمين، ومن حق المسـلم على المسلم سـتر عوراته ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وقـال عليـه السـلام لمعاويـة: «إنـك إن تتبعت عـورات الناس أفسـدتهم أو كدت تفسـدهم» (سـنن أبي داود) وقال أبو بكر: لو رأيـت أحـدًا على حد من حدود الله تعالى لمـا أخذته ولا دعوت إليه أحدًا حتى يكون معي غيري. وفي الحديث الشريف: «يا معشر من

آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته» (مسند أحمد) وكل من أغلق باب داره وتستر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية. . .

نهى الله تعالى عن الظن وعن التجسس ونهى عن الغيبة أيضًا وهي أن يذكر الإنسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه سواء أكان الذكر صراحة أم كناية أم إشارة أم رمزا، وسواء أكان ما يذكره متعلقًا بدينه أم دنياه وبخَلْقه أم خُلُقه، وسواء أكان متصلًا به أم بمن له به رابطة وصلة: من ولد وزوجة وأب وأم وتحرم غيبة المعروف بالصلاح ومستور الحال ولا تحرم غيبة المجاهر بالفسق والداخل في مواطن الريب، وقد نقل القرطبي إجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر وبعد أن صورها الله أبشع تصوير في آخر الآية لا يصح أن تعد في الصغائر.

ثم منها ما هو هين كعيب الشخص في لباسه أو دابته وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق، فإذا قيل إن مثله من الصغائر كان مقبولًا ويجوز لمن ظُلِمَ أن يشكو ظالمه ويذكر ما فعله معه مما يعد عيبًا، كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ويجوز تحذير المسلمين من شر بتجريح الشهود والرواة وإِطْلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الإسلامي، كما يجوز ذكر ما في الولاة والقضاة من شر للقادر على عزلهم.

وقد تضمنت الآية لطائف: ففيها ذُكِرَت أمورٌ ثلاثة مرتب بعضها على بعض: نهى عن الظن في المسلم والقول فيه بغير علم، ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه، ونهى عن إذاعة ذلك إذا تحقق، وختمت الآية بإطماع المؤمنين في رحمة الله بالتوبة وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

ومن أخبث أنواع الغيبة، غيبة القراء والعلماء يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون سماعها ولكنهم يحتالون عليها بإلباسها ثوب الدعاء والإشفاق لمن يريدون اغتيابه.

مثلًا يذكر أمامهم شخص فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ولا بطلب حطام الدنيا! أو يقولون: والله ما أحسنه! ما كان يقصر في عبادة لكنه ابتلي بما يبتلى به سائر الناس لطف الله به! أو يقولون: والله لقد غمنا أمره وما ابتلي به، مسكين أحسن الله حاله!

وقد يظهر القارئ والعالم الغضب لله سبحانه والغيرة على دينه أو يتعجب من ظهور المنكرات وفشو الفسق فيقول مثلًا: انظر إنما نحن في آخر الزمان لقد شوهد فلان وهو يفعل كذا أو بلغني أن فلانًا فعل كذا.

وللغيبة أسباب أهمها: الغيظ وهياج الغضب فيذكر الإنسان عيوب غيره لشفاء النفس من غضبها، ومجاملة الرفقاء وإرادة أن يرفع الإنسان نفسه بالنقص من غيره، ومنها الحسد وهو أهم الأسباب، ومنها اللعب والهزل والمفاكهة وإضاعة الوقت.

وقد صور الله المغتاب على أفحش وجه وأشنعه وضرب له مثلًا بمن يأكل لحم أخيه ميتًا، وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه، فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه، ولما كان ممزق اللحم غير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة، كان كالميت إذا مزق لحمه وكان المغتاب آكلًا لحم أخيه ميتًا.

وقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾

واقع موقع جواب شرط وكأنه قيل : لا يحب أحد أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فإن صح هذا منكم وهو لابد صحيح فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة . وهو تواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه . وهو رحيم : يرحم التائبين .

وتقول العرب للمغتاب : فلان يأكل لحوم الناس ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب
ويأكل بعضنا بعضا عيانا

وقول الآخر :

فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدًا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾
(الحجرات : ١٣)

الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات التي عليها العرب .

أعني أنها أعم الطبقات فهو أعم من القبيلة ، والقبيلة أعم من العمارة ، والعمارة أعم من البطن والبطن أعم من الفخذ ، والفخذ أعم من الفصيلة ، فخزيمة مثلاً شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وسميت شعوبًا لأن القبائل وما بعدها تتشعب منها وتتفرع عليها وقيل : إن الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في اليهود .

ومعنى الآية : إن الله سبحانه خلق كل واحد من الناس من أب وأم فهم متساوون في أصل الخلقة وفي المادة التي منها الخلقة ، كما أنهم متساوون في الصدور عن الإله جل شأنه وإن الله جعلهم شعوبًا

وقبائل ليعرف بعضهم بعضا في قرب القرابة وبعدها وليصلوا الأرحام ولا يُعتزى أحد إلى غير آبائه والنسب غير مكتسب للإنسان وليس للإنسان إلا ما سعى فليس له شأن يعول عليه ويكون مدارا للفخر والتقوى هي المكتسبة وهي التي عليها تجري المقاييس عند الله تعالى فإذا جاز الفخر بشيء فإن أحق شيء بالفخر هو التقوى فافخروا بها فإن أكرمكم عند الله أتقاكم فقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾

تعليل للنهي عن الفخر بالأنساب وبيان للطريق الصحيح في الفخر والله خبير بأحوال الناس عليم بأعمالهم وسيجازيهم على أعمالهم ويقدم أحسنهم عملًا لا أشرفهم نسبًا.

وقد استفاضت الأخبار بأن الكرامة لا ترتبط بالأنساب بل بالعمل من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «الناس رجلان: بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله، الناس كلهم بنو آدم وخلق الله آدم من تراب» (سنن الترمذي)، ثم قرأ هذه الآية وخطب ﷺ في حجة الوداع فقال: «ألا إن ربكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فليبلغ الشاهد الغائب» (شعب الإيمان للبيهقي) وعنه ﷺ: «لينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»[8] (سنن أبي داود).

الإسلام دين عام خالد قد اعتبر المؤمنين جميعهم أمة واحدة واعتبرهم جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب

---

(٨) الجعلان بكسر الجيم جمع جعل بضم الجيم وفتح العين، دابة سوداء كالخنفساء. وقيل هو أبو جعران.

وشعوب العجم تحت راية الإسلام تقاتل مخالفيه وتنشر تعاليمه وتثبت قواعد التوحيد إذا استمرت القبائل تفخر على القبائل والشعوب تفخر على الشعوب وما عرف أن أمة توحدت وفيها أجناس تشعر بالتفاوت والتغاير، ولابد لوحدة الأمة من أن تندمج جميع عناصرها وتنتظمها وحدة تكون هي الغاية التي يحافظ عليها ويقاتل من أجلها وهذه الوحدة التي اعتبرت رباطها الإيمان فهو الجامع لجميع الأجناس والموحد لجميع القبائل والشعوب وهو الذي يدافع عنه ويقاتل من أجله.

بهذه الآية وجد الرباط القوي بين الأمم والأجناس وقضي على النزعة الهادمة التي كانت تسود العرب حيث كانوا يفاخرون بالأنساب ويفخرون بنسبهم على العجم وكان هذا التفاخر يوجد بينهم أحيانًا عداوات وتِرَات.

وبهذه القاعدة مهد الإسلام للعامل المُجِدّ أن يفتح أمامه طريق المجد وأن ينال في الدنيا ما يصل إليه جهده وفي الآخرة ما تعده له تقواه، والتقوى تنال بالأعمال الصالحة، وليست الأعمال الصالحة صلاة وصوما وحجًا فحسب بل هي هذه وحياطة الإسلام والجهاد في سبيله وفي سبيل الحق وفي آخر هذه السورة:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(الحجرات: ١٥)

فمن الممكن أن يكون أي شخص هو الأكرم عند الله وإذ قد عرف المسلمون أن الكرامة عند الله بالتقوى فقد وجب عليهم أن يكون ذلك هو المعيار عندهم وأن يكون المتقون هم الأكرمين.

هذا هو السمو بالنفس الإنسانية إلى أعلى الدرجات وهذا ما

جاء به الإِسـلام منذ أكثر من ثلاثة عشـر قرنًا وكان الناس إذ ذاك في ظلمـة العبودية وتقديس الطغيان وبعـد أن عرفت الأمم هذا فخرت به وظنت أنها وقعت على شيء جديد لم يعرف والإِسلام عاثر الجد بينهم بما هو براء منه وبما جاء لهدمه.

جاء الإِسـلام بهدم مزايا الأجناس وبالتعويل على التقوى والعمل الصالـح وأيـن هذا ممـا عليه المسـلمون الآن مـن اعتـزاز كل أمة بجنسـها وكل واحد بقبيلته أو أسـرته مما أدى إلى تقطيع الروابط وإلى ألا يكون المسـلمون تحت وحدة يدافعون عنها فأصبحوا أذلة بعد العزة وضعفاء بعد القوة فهم على كثرتهم كأنهم غثاء السيل لا يقام لهم وزن:

ويـقـضـى الأمـــر حـيـن تـغـيـب تيم

ولا يــســتــأمــرون وهـــم شـهـود

هذه الآداب التي ساقها الله في الأيام السابقة والتي طلب أن يكون عليهـا المؤمنـون قائمة على أصول هـي: اعتبار المسـلمين وحدة واعتبار أفرادهم أخـوة وقائمة أيضًا على أصل خطير في الحياة وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم والأخذ بيد الحق والوقوف في صف المظلومين، هذه درجة سـامية كرمهم الله تعالى بها ومن الواجب أن يفقهوهـا ويتدبروها ويعملوا عليها ليكونوا أشـرف الناس وأعزهم جانبًا وأكرمهم مبدأ ونسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

(الحجرات: ١٤)

الأمـن: طمأنينة النفس وزوال الخوف وقد أخـذ منه الإِيمان وجعل

اسما للتصديق الذي معه الأمن وهو الإذعان للحق ومنه قول الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾

(يوسف : ١٧)

أي بمصدق . والإسلام : استسلام وانقياد وترك للتمرد والعناد والتسليم عام يكون في القلب واللسان والجوارح فالإسلام أعم والإيمان أخص وهو أشرف أجزاء الإسلام .

هذا ما تعطيه اللغة ، لكن الإيمان والإسلام حدث لهما استعمالات شرعية أخرى فقد استعملا مترادفين ومختلفين ومتداخلين .

ومن الترادف قول الله تعالى :

﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (الذاريات : ٣٥ ، ٣٦)

ولم يكن فيها بالاتفاق إلا بيت واحد ، وفي الحديث الشريف « بني الإسلام على خمس » (صحيح مسلم) وقد سئل النبي ﷺ مرة عن الإيمان فأجاب بمثل هذا .

ومن الاختلاف قول الله تعالى :

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾

(الحجرات : ١٤)

أراد بالإيمان التصديق وطمأنينة النفس وبالإسلام الانقياد والاستسلام في الظاهر ، وفي حديث جبريل لما سأله عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره » (تعظيم قدر الصلاة للمروزي) ، ولما سأله عن الإسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » . (صحيح البخاري)

ومن التداخل: سئل ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: الإسلام، فقيل: أيّ الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. (تعظيم قدر الصلاة للمروزي) وهو دليل على أن الإسلام أعمّ والإيمان أخص.

وهذا يوافق الاستعمال اللغوي؛ لأن الإيمان عمل من الأعمال هو أفضل جزء في الإسلام؛ لأن الإسلام يشمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح، وأفضل هذه الثلاثة تصديق القلب وهو الإيمان، وعند الترادف يكون هناك تعميم في الإيمان بإطلاقه على التصديق وعلى ثمرة التصديق وهي النطق باللسان والإتيان بالأعمال، وعند الاختلاف يكون هناك تخصيص في الإسلام، حيث خص بالتسليم الظاهري وهو الإقرار باللسان والطاعة بالأعمال.

وقد جاء استعمال الإيمان في العمل الصالح:



(البقرة: ١٤٣)

وفي الحديث الشريف: جعل إماطة الأذى عن الطريق والحياء من الإيمان (صحيح مسلم)، ولا خلاف في أن النطق بالشهادتين كافٍ في إجراء أحكام الإيمان في الدنيا، ويعتبر المُقِرّ بلسانه مؤمنًا وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو مُنطَوٍ عليه قلبُه، كما أنه لا خلاف في أنه إذا لم يكن مصدقًا بقلبه فهو كافر مخلد في النار، لكن هناك خلاف فيما يجب أن يُضَمّ إلى التصديق القلبي للنجاة في الآخرة وعدم الخلود في النار:

فمَن جمع بين التصديق والإقرار والإتيان بالأعمال الصالحة فلا خلاف في أن الجنة مستقرُّه، ومن صدق وأقرَّ وارتكب شيئًا من الكبائر فهو لا يدخل النار عند المرجئة؛ لأنهم يرون أنه لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ويخلد في النار عند

المعتزلـة؛ لأن مرتكـب المعصيـة يخرج فـي رأيهم عـن الإيمان، والجنـة لا يدخلهـا إلا مؤمن، وهو عند الجمهـور رجلٌ عاصٍ يدخل النارَ فيطهَّر فيها ثم يخرج منها؛ لأنه لا يخلد في النار إلا الكافرون، ويمكـن بعد هذا أن نقول: إن الإيمان الذي لا يخلد صاحبه في النار هو التصديـق وحده عند الجمهور وعند المرجئـة، أما الإيمان عند المعتزلـة فهـو مركَّب من ثلاثة أشـياء: التصديق والإقـرار والعمل الصالح، ومذهب المعتزلة على هذه الصفة هو المروي عن السـلف رضـي الله عنهم، فقـد نُقل اتفاقهـم على أن الإيمـان تصديق وقول وعمل، لكنَّ الجمهور يقولون: إن المروي عن السـلف هو تفسـير للإيمان الكامل الذي يجعل مستقر صاحبه الجنة وينجيه من دخول النـار، وذلـك للقطع بـأن الصحابة -رضـي الله عنهم- لـم يكونوا يعتبـرون العصاة غير مؤمنين، ولا شـبهة فـي أن المتتبع لآيات الله سـبحانه وللسـنة المحمدية وأقوال الأئمة، يقطع بأن الإسلام يعتبر العصاة مؤمنين يعذبون ويطهرون ثم يخرجون إلى دار النعيم.

(لاته عن كذا يليته): صرفه عنه ونقصه حقًا له، والمصدر لَيْتٌ.

و﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾: أي لا ينقصكـم من أعمالكم، ولات وألات بمعنى نقص.

هـؤلاء الأعراب إما أن يكونوا مصدِّقيـن مقرين، وإما أن يكونوا مقريـن غير مصدقين، فـإن كانوا مصدقين مقريـن كان المعنى: لا يصح لكم أن تقولوا آمَنَّا على الإطلاق؛ لأن معنى آمنا على الإطلاق: حققنا القول بالعمل، ويصح لكم أن تقولوا قولا لا إشكال فيه على سـامعيه، وإن قلتموه كنتم محقين في قوله وهو أن تقولوا: أسلمنا، أي دخلنا في الملة بالشهادة التي تحقن الدم وتصون الأموال، وعلى هذا يكون معنى قوله:

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ : لم يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائقه ومعانيه في قلوبكم.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وتعملوا بما فرضه الله عليكم وتنتهوا عمَّا نهاكم عنه، لا يظلمكم شيئًا من أجور أعمالكم ولا ينقصكم من ثوابها شيئًا وهو غفور لمن تاب ورحيم لا يعاقب بعد التوبة، ويمكن أن تكون الطاعةُ هنا بمعنى التوبة عن النفاق، وعقد القلب على الإيمان، ليوافق القلبُ اللسانَ، فإذا فعلتم ذلك قبل الله التوبة منكم وغفر لكم، وإن كانوا مقرين غير مصدقين كان المعنى: لم تؤمنوا إيمانًا وافق القلبُ فيه اللسان؛ لأنكم لم تصدقوا و﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي انْقَدْنا ودخلنا في زمرة أهل السلم، ولمَّا يدخل الإيمان الحقيقي وهو التصديق في قلوبكم. ولا تكرار بين قوله:

﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾

وقوله:

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾

لأن الجملة الثانية في موضع الحال من الضمير في ﴿قُولُوٓاْ﴾ وهو توقيت لما أمروا أن يقولوه، فالمعنى: قولوا أسلمنا في الوقت الذي لم يدخل الإيمانُ فيه قلوبكم.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾
(الحجرات: ١٥)

رابه: أوقعه في الشك والتهمة، وارتاب: مطاوعه، وريب المنون: ليس الشك فيه من جهة حصوله، بل من جهة وقته.

والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد: يشمل

جهاد العدو الظاهر وجهاد النفس وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم»، والجهاد الظاهري يكون باليد ويكون باللسان، وفي الحديث: «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم» (رواه ابن حبان وابن أبي يعلى).

يقول الله سبحانه: ليس الإيمان هو ما زعمتم من قول لا يوافقه عقد القلب أو من تصديق وقول لم تؤازرهما الأعمال ولم تشدهما الطاعة، بل الإيمان الذي يعتمده الله سبحانه ويستحق أهله الحمد والثناء ويباعد بين أهله وبين النار هو تصديق لا أثر للريب فيه يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح بالطاعة وأداء ما فرضه الله سبحانه من التكاليف البدنية والتكاليف المالية والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله الذي ارتضاه لعباده وهو إعلاء كلمة الله وتمكين الحق ودفع البغي وعمارة الأرض وتطهيرها من الفساد، أولئك الذين هذه خصالهم وهذا إيمانهم هم الصادقون إذا قالوا آمنا على الإطلاق، وهم الذين إيمانهم إيمان صدق وحق وجِدّ وثبات.

وخص الله الجهاد بالنفس والمال بالذكر؛ لأنه أشق أنواع الطاعة.

وقوله:

﴿ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾

إما أن يكون معناه: آمنوا واستمروا على التصديق والإذعان للحق ولم يعترضهم الريب بعد ذلك؛ لأن المؤمن قد يُبتلى بمن يضلله ويقذف في قلبه ما يثلم اليقين أو ينظر نظرًا خاطئًا يسقط به على الشك فيركب رأسه لا يطلب المخرج، فوُصف المؤمنون حقًا بالبعد عن هذا، وإما أن يكون معناه: آمنوا ولم يداخل إيمانَهم ريبٌ، وأفرد بالذكر مع أن الإيمان يقتضيه للدلالة على مكانة نفي الريب والشك من الإيمان، وجاء «ثم» للدلالة على استقرار الإيمان في الأزمنة المترامية المتطاولة غضًا طريًا.

الجهاد بالنفس يشمل القتال والمرابطة في الثغور على حدود بلاد الإِسلام، ويشمل الحراسة وكل عمل من الأعمال التي يحتاج إليها القتال، والجهاد بالمال يشمل جميع أنواع البر من الزكاة والصدقة وبناء المساجد والمصحات وإنشاء المرافق العامة للمسلمين، ومن أهم أنواع الجهاد بالمال تجهيز الغُزاة بالمعدات والإِنفاق عليهم في طعامهم وشرابهم ولباسهم.

ذكر الجهاد في هذه الآية وحده من بين أنواع الطاعة وفرض على المسلمين في آية

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾

أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يرجع إلى الحق، والجهاد في سبيل الله معناه الجهاد لإِعلاء كلمة الله وإعزاز دينه. وإعلاءُ كلمة الله وإعزاز الدين إعلاءٌ للحق، فكأن المسلم نُدب من الله لنصر الحق وإعزازه والضرب على أيدي البُغاة ونُدب لتطهير الأرض من الفساد.

هذه منزلة وضع بها في الدرجة العليا من منازل الكرامة، فعليه أن يُعدَّ نفسه لها، وأن يعتبر نفسه جنديًا، إما في القتال والغزو وإما في الرباط وإما على أهبة أن يُدعَى لواحد منها، وقد جعل الله أجر الجهاد عظيمًا وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه. ولا أريد أن أعرض لحكم الجهاد في بقاء فرضيته إلى الأبد وفي أنه فرض عين أو كفاية، فهذه مسائل تكفَّلتْ بها كتب الفقه، ولكنْ مما لا نزاع فيه عند أحد أنه إذا قُوتل المسلمون واعتُدي عليهم قتالاً للدين أو للوطن وجب على المسلمين الجهادُ وقتالُ المعتدين، وأنهم يأثمون جميعًا إذا لم يتعاونوا جميعًا على قتال الأعداء. والجهاد في سبيل الله هو الجهاد الذي لا يقصد منه مغنم دنيوي، فعن أبي موسى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل

الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا ، ويقاتل حميةً ، فرفع إليه رأسه ، قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا ، فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله عز وجل» (متفق عليه) .

ويمكن أن تعتبر الآية الكريمة الآتية دستور الإسلام في القتال :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

(الممتحنة : ٨ ، ٩)

أمر الله ورسوله بالجهاد وبينا فضله ورغبا فيه ، وفي الكتاب العزيز :

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

(النساء : ٧٤)

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

(النساء : ٩٥ ، ٩٦)

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٩-٢٢)

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة...» (صحيح مسلم) وعنه أيضًا: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله» (سنن الترمذي)، وعن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر حارس حرس في أرض خوف لعله لا يرجع إلى أهله» (السنن الكبرى للنسائي) والرباط: هو الذي يكون آخر بلاد الإسلام على حدود بلاد الأعداء.

وعنه ﷺ: «من أعان مجاهدا في سبيل الله، أو غارما في عسرته، أو مكاتبا في رقبته، أظله الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله» (مسند أحمد) وقال: «رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولَروحةٌ يروحها العبد، أو لَغدوةٌ، خيرٌ من الدنيا وما فيها» (سنن الترمذي).

أمر الله بالجهاد، وأمر بأن يُعَدَّ للأعداء العدةُ، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة، فقال:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

والقوة تختلف باختلاف العصور، وتَجِدُّ في كل عصر عدة

وأسلحة للقتال، فلا يجوز أن يكون المسلمون متأخرين عن غيرهم في العُدَّة، وعليهم أن يُتقِنوها، وعليهم أن يصنعوها، وعليهم أن يحرزوا موادَّها، وعليهم أن يعرفوا أسرار المواد، وأسرار الصنعة، كل هذه معارف يجب على المسلمين أن يحيطوا بها، كما يجب أن يحيطوا بالدين وأسراره واللغةِ العربية وعلومها، لكنَّ المسلمين قد حُرِموا بعض هذه المعارف، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان!

يجب على المسلم أن يعد نفسه جسمانيًا ليكون دائمًا على أهبة القتال، فيتعلم ضروب الرماية، والسباحة، ويمرّن عقله، ويمرّن نفسه على الصبر واحتمال الأخطار، كل هذا يدخل تحت قول الله سبحانه:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾

(الأنفال: ٦٠)

وفي الحديث الشريف: «كل شيء ليس من ذكر الله فهو لَهْوٌ، إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغرضين (أي بين الهدفين اللذَيْن يوضعان للرمي)، وتأديب فرسه، وملاعبة أهله، وتعليم السباحة» (المعجم الأوسط للطبراني) وعنه ﷺ قال: «من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني» (سنن ابن ماجه) وعنه ﷺ قال: من تعلم الرمي ثم تركه كانت نعمة يكفرها» (مصنف ابن أبي شيبة).

وحرَّم الله في القتال الفرار من الزحف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

(الأنفال: ١٥، ١٦)

وحث الله تعالى على الإسراع في إجابة الدعوة إلى القتال في سبيل الله، وحرَّم التثاقل، فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٨، ٣٩)

وعن النبي ﷺ: «ثلاثة لا ينفع معهن عملٌ: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف» (المعجم الكبير للطبراني).

وفي حديث آخر: «خمس ليس لهن كفارة» وعدَّ منهن: «الفرار من الزحف» (الجهاد لابن أبي عاصم).

هذه هي أحكام الجهاد، وفضله، ولم يشرعه الإسلام للتوسع والغُنْم، بل شرعه دفاعًا عن الحق، وذَوْدًا عن حياض الدين.

أعدَّ الله المسلمَ ليكون في القتال رجلًا إذا دعا الداعي وحانت ساعةُ الإقدام، وليكون ملكا مهذب الأخلاق، سمح الطباع، لا يسخر من أحد ولا يلمزه، مؤدبًا مع الله سبحانه، لا يقدِّم رأيًا على رأيه، ومع الرسول الكريم: يخاطبه باللين والرفق، ويجاهد نفسه وهواه، هذا هو المسلم الذي يريده الإسلام.

فهل آن للمسلمين أن يفهموا المسلم، وأن يتدبروا ما هو مطلوب من المسلمين، وأن يهبوا لدفع الأخطار المحيقة ببلادهم، والأخطار التي ربما قَوَّضتْ مبادئ الدين؟!

أعتقد أن ناقوس الخطر دقَّ، وأن مؤذن الفلاح والصلاح قد صاح، وأن الفرصة سانحة الآن لخير الإسلام والمسلمين.

﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

(الحجرات : ١٦)

يعني : أتعلمونه عقيدتكم وتقولون آمَنَّا ؟ ومعناه : أَطَعْنَا وتحقَّقْنا بالشرائع ، أو صدَّقْنا ووافق قولُنا ما في قلبنا ، وأنتم على غير ذلك ، وهو عالم بما كان ويكون وما هو كائن ، لا تخفى عليه خافية .

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ (الحجرات : ١٧)

كان هؤلاء الأعراب يقولون للنبي ﷺ : إنَّا أسلمنا بغير قتال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، فأُمِر ﷺ أن يقول لهم : لا تمنوا عليَّ إسلامكم ، بل الله هو الذي يمن عليكم أن وفَّقكم للإيمان بالله ورسوله على حسب زعمكم ، فإنْ كنتم صادقين في قولكم آمنا ، فالله وحده هو الذي هداكم لهذا الإيمان الذي تزعمونه وتدَّعون أنكم أُرشِدتم إليه .

يقال : مَنَّ عليه بيدٍ أسداها إليه ، والمنة : النعمة التي لا يستثيب مسديها ، من المن وهو القطع ؛ لأن مسديها أراد قطع حاجة صاحبها ، ولم يطلب المثوبة ، ومَنَّ عليه صُنْعَه : إذا اعتَدَّه عليه .

قال صاحب الكشاف : سياق الآية فيه لطف ورشاقة : ذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلامًا ، ونفى أن يكون إيمانًا كما زعموا ، فلمَّا مَنُّوا ما كان منهم قال الله لرسوله : إن هؤلاء يعتدُّون عليك ما ليس جديرًا بالاعتداد به ، من حديثهم الذي حقه أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدُّوا على إسلامكم ، أي حديثكم المسمى عندي إسلامًا لا إيمانًا ، بل الله يعتدُّ عليكم أن أمدَّكم بتوفيقه حسب زعمكم للإيمان ، فإن صحَّ زعمكم ، وصدقتْ دعواكم فالله صاحب المنة ، لكنه زعمٌ يعلمُ الله خلافَه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

(الحجرات: ١٨)

وإذا كان يعلم الغيب في السماوات والأرض، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب، والداخل في الإسلام رغبة فيه والداخل خوفًا من جند الله وحقنًا لدمه، فلا يصح لكم أن تعلموه ما أنتم عليه، فهو يعلم ما تكنه الضمائر وما تحدث به النفس، وما غاب عنكم فاستتر في خبايا السماوات والأرض، وهو بصير بأعمالكم التي تعملونها سرًا وجهرًا، وطاعةً ومعصيةً، وهو مُجَازٍ على هذا كله، يجزي على الشر بالشر، وعلى الخير بالخير.

وأسأل الله العلي القدير أن يوفق المسلمين لمعرفة دينهم، والعمل على سعادتهم في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.

سورة الحديد

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(الحديد : ١)

سبَّحتُه : بعدتُه عن السوء ، مأخوذ من سبح إذا ذهب في الماء وأبعد ، و﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما هو مستقر فيهما ، وما هو متصل بهما على أي نحو من أنحاء الاتصال ، فهو عبارة عن جميع الموجودات علوية وسفلية ، والآية على هذا مساوية للآية الأخرى

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾

(الإسراء : ٤٤)

فجميع الموجودات تُنزه اللهُ سبحانه عما لا يليق بذاته وبصفاته وبأفعاله وأحكامه ، وتدل على أنه الواحد الأحد المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرَّأ عن سمات النقص ، وتدل على أن أفعاله صادرة عن ذاته على وفق العلم ومقتضى الحكمة ، وعلى أن جميع ما يصدر عنه من الأحكام يصدر على حسب العلم والحكمة ، لخير العباد ، وفق النظام العام الذي قدره .

والأصل في معنى ﴿سَبَّحَ﴾ : نطق بسبحان الله أو غيرها مما يدل على التنزيه ، فهل هذا هو المراد من قول الله سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

أو هو محمول على معنى آخر غير هذا ؟ للعلماء في هذا خلاف ، ذهب بعضهم إلى حمله على الحقيقة ، وأن كل موجود يسبح تسبيحًا اختياريًا بعبارة تدل على التسبيح ، وأننا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الإنسان ، والصادرة عن الملائكة ، ولا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الجماد وبعض

أنواع الحيوان، والدليل على ذلك قوله سبحانه:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

(الإسراء: ٤٤)

فقد أثبت سبحانه لكل شيء تسبيحًا، وثبت أننا نفقه بعضه ولا نفقه بعضه، ولو كان هذا التسبيح اعتباريًا يرجع إلى الدلالة العقلية لما كان لهذا التقسيم وجه، فإن جميع الناس متساوون في إمكان إدراك الدلالة العقلية، وهي دلالة الموجودات على موجدها، وأكثر الصوفية على هذا الرأي.

وقد استبعد جمهور العلماء أن تكون للجمادات تسبيحات اختيارية لا نفقهها، وأن تكون للحيوانات تسبيحات اختيارية لا نفهمها، فصرفوا اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، فالأنفس والآفاق والسماوات والأرض وما فيها من دقة الصنع، والحكمة العالية في الوضع، والأسرار الباهرة في الوجود، والسنن التي يفنى الزمان قبل أن يتناولها الإدراك

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩)

هذا كله يدل دلالة قاطعة -وإن كانت متفاوتة حسب تفاوت العقول ودرجاتها- على إلهٍ منزَّهٍ عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، إلهٍ واجب الوجود، يشرق وجوده على جميع الموجودات، ويشرق علمه علي جميع المعلومات، وهذه الدلالة هي التسبيح المشار إليه بقول الله

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الحديد: ١)

ولمَّا كان بعض الناس لم يدرك هذه الدلالة وأنكر الإله والخالق، صحَّ أن يقول الله سبحانه:

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)

أي لا يفقه بعضُكم هذا التسبيح، وتذييل الآية بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يدل على القهر، يشير إلى أن هذا التسبيح قهري، والتسبيح القهري هو تسبيح الدلالة.

وينبغي أن يعلم أن من الدلالات ما هو اختياري يقع بإرادة الدال كدلالة النطق والإشارة والكتابة عند الإنسان، ومنها ما هو غير اختياري كدلالة المصنوع على الصانع، والمخلوق على الخالق، والدلالة الثانية لا يعرض لها الكذب، أما الأولى فهي محتملة للصدق والكذب.

وكل ما في الوجود يدل دلالة عقلية على الله سبحانه، وعلى تنزيهه، يشترك في ذلك الموجودات العاقلة وغير العاقلة، وللموجودات العاقلة عبارات تدل على التنزيه أيضًا، لا خلاف في هذا كله، وإنما الخلاف في أن الجمادات والحيوانات غير الناطقة وما أشبه ذلك هل تسبح بعبارة خاصة بها تدل على تنزيه الله كما يسبح الإنسان، فيكون لها تسبيح اختياري وتسبيح غير اختياري، أو لا تسبح على هذه الصفة، فلا يكون لها إلا تسبيح غير اختياري هو الدلالة؟

وقد ذكر التسبيح في هذه السورة بلفظ الماضي، وكذلك جاء في سورة الحشر وسورة الصف، وذكر في سورة الجمعة وسورة التغابن بلفظ المضارع، والماضي يدل على الحصول إلى زمان الإخبار، والمضارع يدل على الاستمرار في الحال والاستقبال، فاكتنفت الصيغةُ بقسميها جميع الأزمنة، ودلّ هذا على أن التسبيح يلازم الموجودات في جميع الأوقات، وأن ذلك شأنها ودينها ودأبها ولفظ ﴿سَبَّحَ﴾ يتعدى بنفسه، وقد عُدِّي هنا باللام، ونظيرُ ذلك

نصحتُه ونصحتُ له، زيدت اللام لتقوية وصل الفعل بالمفعول.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

العزة: حالة تمنع صاحبها من أن يغلب، مأخوذ من قولهم: أرض عزاز أي صلبة، والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، وإذا أسندت إلى الله سبحانه كان معناها معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

(الحديد: ٢)

المُلك بالضم: ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم والملك، فهو أخص من المِلك بالكسر.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: يخلق الحياة والموت، يفيض الحياة على الميت فيحيا، ويسلبها عنه فيموت.

(القدير): البالغ القدرة.

بعد أن بيَّن الله سبحانه أن جميع الموجودات تنزهه عن كل نقص، بيَّن أنه الغالب القاهر الذي لا ينازعه شيء، أوجد كل شيء بقدرته، وأحسن صنعه بحكمته، لولا جوده ما وُجد موجود، ولولا علمه الواسع وحكمته لما وُجد هذا النظام الذي تحار فيه العقول وتضل الأفهام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ﴾

(فاطر: ٤١)

فهو المتصرف في السماوات والأرض وما فيهما تصرُّفَ المالك الضابط، المحكِم في تصرفه، القادر القاهر في ملكه، ومِن أظهر

آثارِه الإحياءِ والإماتة، فهو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسـن عملاً، وهو الذي يفيض على الأحياء الحياة ويسـلبها عنهم في الأوقات المقدرة حسـب علمه، وهذا الـذي صرح به من صفاته لازم للدلالة العقلية التي تدل بها الموجودات على تسبيحه؛ ولذلك جاء بها عقب التسبيح، وستجيء صفات أخرى في الآيات الآتية:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(الحديد: ٣)

الأول: السابق في الوجود على جميع الموجودات.

والآخِر: الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات، أمَّا أنه أول بهذا المعنـى فأمره ظاهر؛ لأنه واجب الوجـود، وجوده مقتضى ذاته، أو هو الوجود الحق، وكل ما عداه فهو هالك في ذاته يحتاج في وجوده إلى إشـراق الوجود الحق، وليس هناك ما يسـبق الوجود الحق، ولا مـا يسـاوي الوجود الحق، وأمـا أنه آخر بهذا المعنـى فليس موضع اتفـاق، وأكثر العلماء على خلافـه، فمن الناس من ذهب إلى أن كل شيء يفنى ويبقى الله وحده:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾

(الرحمن: ٢٦، ٢٧)

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

(القصص: ٨٨)

والله تعالـى يوصـل الثواب إلى أهـل الثواب، والعقـاب إلى أهل العقاب، ثم يفني الجنة وأهلها، والنار وأهلها، والعرش والكرسـي، والملـك والفلـك، ولا يبقى مع الله شـيء أبـدًا، ولا يعيد بعد ذلك شـيئًا أبدًا، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه أبد الآبـاد. وهذا المذهب -إن صح- هو تفسـير الآخِر، ومن الناس من

جـرى على هذا الرأي وخالف في الإعـادة، فقال إن الله بعد أن يُفنِي كلَّ شـيء ويبقـى وحده، وبذلك يكون آخِرًا[٩] يعيد كل شـيء مرة أخـرى ويبقيهـا أبدًا، وقالوا: مما لا شـبهة فيه إمـكان بقاء العالم، وهناك إجماع من المسـلمين على أبدية الجنة والنار، فالآخرية التي وصف الله بها نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعـلا، وأبديـةُ الجنة والنار المجمع عليهـا لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها، والنار وأهلها، وبقي الكل بعد ذلك أبد الآباد.

وهنـاك آراء فـي تفسـير الآخِر غير منظـور فيها إلى فنـاء الجنة وأهلها والنار وأهلها، تدور كلها على اعتبار الأوَّلية ذاتية كما سبق، والآخريـة اعتبارية، فمنها أنه وصف نفسـه بـأن المرجع والمصير إليه، فقال:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾

(الحديد: ٥)

وفي آيةٍ: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

(المائدة: ١٨)

ومنهـا أن أول مـا أدركـه الإنسـان ويدركه هو آثار الله سـبحانه، وبهـذه الآثـار عرف الله، فهـذه الموجـودات أدلة عند الإنسـان في الحـس، ومنها توصَّـل بالنظر والدليل إلى معرفة الله، فالله سـبحانه هو الآخر عند العقل.

وقـال حجة الإسـلام: الأول أن يكـون أولًا بالإضافة إلى شـيء، والآخِر يكون أخرًا بالإضافة إلى شـيء، ولا يتصور أن يكون الشـيء الواحـد مـن جهة واحدة أولاً وآخِـرًا بالإضافة إلى شـيء واحد، فإذا

(٩) وعليه تكون الآخرية في وقت ما. ليست أبدية كما هي على الرأي الأول.

نظـرت إلى سلسـلة الموجـودات المترتبـة فالله سـبحانه بالإضافة إليهـا أول ؛ لأنه هـو الموجود بذاته وجميع الموجودات اسـتفادت وجودهـا منـه ، وإذا لاحظـت ترتيب السـلوك في المعرفـة وراقبت منـازل السـالكين فهو تعالى آخِـر ما ترتقي إليه درجـات العارفين ، وكل معرفـة تحصـل قبل معرفته فهـي مرقاة إلى معرفتـه ، ومعرفته هي المنزل الأقصى ، سـبحانه ، فهو أول بالإضافة إلى الوجود ، وآخِر بالإضافة إلى السلوك ، سبحانه وتعالى ، إليه المرجع وإليه المصير ، والأول والآخِـر لا يقـالان فـي صفـات الله سـبحانه إلا مزدوجيـن ، وكذلك الظاهر والباطن ، وسيأتي بيانهما .

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ : إدراك كُنْـه الموجـودات الممكنـة بالعقل عسـير أو مسـتحيل ، فما بالك بـإدراك الذات الإلهيـة ، وقد قيل إن إدراكها هو العجز عن إدراكها ؟ فوجود الله سـبحانه تضافرت الأدلة العقليـة عليه ، وأجمع عليـه الناسُ ، إلا من أعمى الله بصائرهم . وقد وصفـه العلماء الذيـن لا يعترفون بدين بما هو لائـق بذاته ، وحقيق بجلالـه ، وبما نكرره نحن اليوم ونتدارسـه . ويكاد يكون الاعتراف بالإلـه الخالـق فطريًا ضروريًا في غير حاجة إلـى الدليل . وكنه ذات الإله لا يمكن الوصول إليها بالعقل ، كما أنه لا يمكن إدراك الله أيضًا مـن طريق الحواس ، فإذا نظرت إليه من خزانة العقل فوجوده ظاهر ، وإذا نظـرت إليه من خزانة الحواس فوجوده باطن ، وكذلك هو باطن في خزانة العقل من جهة الكنه ، فالله ظاهر الوجود إن طلب بالعقل ، والله باطن إن طلب كنهه بالعقل ، أو طلب بالحواس .



(الحديد : ٣)

لا يغيب عن علمه شـيء ، وهذا الصنـع الدقيق في العالم العلوي

والسفلي شاهد على أن الذي أبدعه محيط به.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

(الحديد: ٤)

يقال: استوى فلان على عمالته، ومتى عُدِّي بـ(على) اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾

(طه: ٥)

وإذا عُدِّي بـ(إلى) اقتضى معنى الانتهاء إليه إما بالذات أو بالتدبير، مثل

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾

(فصلت: ١١)

﴿ٱلْعَرْشِ﴾: يقال عرشتُ الكَرْمِ وعرشته، إذا جعلت له كهيئة سقف. وسُمي مجلسُ السلطان عرشًا اعتبارًا بعلوه، ويكنَّى به عن العز والسلطان والمملكة.

خَلْق السماوات والأرض من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته ورحمته وعلمه الواسع، فيه آيات بينات يبهر الناظرين بعض ظواهرها، فكيف حال من اطَّلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها، ودلَّ ما عُرف على ما لم يُعرَف، وهو لا نهاية له؟

والأجرام السماوية طوائف يبعد بعضها من بعض بُعدًا شاسعًا، ولكل طائفة منها نظام عام، وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يسمَّى النظامَ الشمسيَّ، منسوبًا إلى الشمس التي يفيض نورها فيكون سببًا للحياة في الأرض. والشمس يتبعها كواكب مختلفة في أبعادها

ومقاديرهـا، وقد اسـتقرَّ كل كوكب في موضعـه ومداره، وحفظت النسـبة بينه وبين غيره من الكواكب، كل ذلك بسنن إلهية أوجدها القادر الحكيم، ولولا هذه السـنن لتفلتت هذه الكواكب السابحة، وصدم بعضها بعضًا، وهلك العالم.

وقـد قلنا إن المراد بالسـماوات والأرض هـو الموجودات، وقد تطلق السـماوات على مـا دون العرش من العالـم العلوي، وبخاصة إذا وصفت بالسبع.

وفي هذه الآية بيَّن الله سـبحانه خلق السـماوات والأرض في ستة أيام، وقال في آية أخرى:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

(فصلت: ٩ - ١٢)

ففـي هذه الآية الأخيرة تفصيلٌ لِمَـا أُجمل في آية الحديد، حيث جعـل للسـماوات يومين، وجعـل لخلـق الأرض يومين، ثـم أوجد الرواسـي فوقهـا وبارك فيها وقـدَّر فيها أقواتها فـي يومين، فيكون مجموع ما أخذته الأرض وما فيها أربعة أيام، وذلك قوله:

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾

أيْ فعلَ ذلك كلَّه في أربعة أيام، وجملة ما أخذتْه السماءُ يومان: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

ولا يُعقَل أن تكون الأيامُ الستة في هذه الآية من جنس أيامنا ، فإن هذه الأيام وُجِدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو ، وقد قال في يوم القيامة :

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

(المعارج : ٤)

وقال في آية أخرى :

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

(الحج : ٤٧)

وقد تكون السنة سنة نورية ، فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف عن تحديدها ، فإنها لم تحدد بأخبار صحيحة ، والله سبحانه يقول :

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾

(الكهف : ٥١)

وقد رُوي عن أبي هريرة ما يدل على أن الأيام من أيامنا ، وتكلَّم فيه البخاريُّ وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ، ولم يجعلوه مرفوعًا .

والذي قاله البخاري هو الذي يجب التعويل عليه . وفي الإسرائيليات شيء كثير ، وفيها بيان لما صنع في أيام الأسبوع ، ولو كانت هناك أية فائدة في بيان جنس الأيام وفي بيان ما صنع في الأيام لأخبرنا الله سبحانه بذلك ، فهو الجواد . والعبرة إنما هي في الخلق وفي جعله أطوارًا . وقد أرشد الله سبحانه في آية فصلت إلى أنه استوى إلى السماء وهي دخان ، وقال في سورة الأنبياء :

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأنبياء: ٣٠)

وهذا يدل على أن السماوات والأرض كانتا مادةً واحدةً متصلةً وفُصل بعضُها عن بعض، وهي مادة تشبه الدخان، ومن هذه المادة خلقِ السماوات، بدليل

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا ﴾

(فصلت: ١١)

ويدل على أن مادة الدخان بعد الفصل تحوّلُ جزءٌ منها إلى ماء، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسي، وبعد ذلك ظهرت الحياة والأقوات. فالأطوار التي مرت على الأرض: الدخان، ثم الماء، ثم اليابسة، ثم الأحياء والأقوات.

ونحن نؤمن بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أطوار يعلمها هو، ونؤمن بأن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما، ونؤمن بأنَّ خلق السماوات في يومين، وخلق الأرض وما فيها في أربعة، ونؤمن بأن كل شيء حي فمن الماء خلقه، وأن كل شيء خلقه بقدر، وما أنزل شيئًا إلا بقدر معلوم. وإذا كشف العلماءُ عن تفاصيل في مادة الخلق وأطواره لا تُنافي ما قرره القرآن فلنا أن نقبلها. وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض، فلا يجوز لنا أن نرد به شيئًا من القرآن.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾: سئل مالك عن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كيف استوى؟ فوجد وجدًا شديدًا وأخذته الرحضاء، ولمَّا سُري عنه قال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأخاف أن تكون ضالًا، وأمر به فأُخرِج. ورُوي عنه أنه قال له: استوى كما وصف نفسه، وكيف

عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة.

ونحــن نؤمــن بأنه اســتوى على العــرش كما وصف نفســه[١٠].
وعرشــه لا يعلمه البشــر إلا بالاســم، وليس حاملًا لــه كما يتوهمه الناس، وتعالى الله عن أن يكون محمولًا أو في جهة أو حيز، وتعالى الله عن سمات المخلوقين:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

(الشورى: ١١)

والقــرآن يــدل على أن العرش لم يزل مســتعليًا منذ وُجد، بدليل قوله:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾

(هود: ٧)

وأقرب ما يقال في الاســتواء، عند إرادة التأويل: إنه التصرف في الموجــودات والتمكن منه مع عدم المنازع والمغالب، عبَّر عنه بما يفهمه الناسُ من استواء المَلك على العرش وتمكُّنه من التصرف في شئون الملك. وقد نزل القرآنُ على أساليب العرب ومناحيها، فمنه المجــاز ومنه الكناية، والعقــل هو الذي يصرف الألفاظ عن ظاهرها إلــى ما يليق بجلاله، ولا يجوز أن يتحكم أولئك الجهلةُ في تفســير القــرآن والحديــث النبوي ويحملــوا الألفاظ على ظاهرهــا فيوقعوا الناس في التجســيم ولوازم التجسيم. ولولا طائفة من علماء السلف تحقــق فيهم الذوق العربي ففهموا دقائق العربية وأســرارها، ووجد عندهم العقل الراجــح والعلم الناضج في معرفة الموجودات وطرق الاســتدلال، لَضلَّ الناس فــي فهم القرآن ومناحيه وأســراره، ودخل

(١٠) مع تنزيهه سبحانه عن الجهة والجسمية والتحيز.

فـي العقائد مـا لا يريده الله ولا يريده رسـوله من الزيـغ، ودخل في التشريع ما لا يريده الله من مجافاة مصالح العباد.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤)

الولـوج: الدخـول فـي مضيـق. والعـروج: ذهاب فـي صعود. ولفظـة ﴿مَعَ﴾ تقتضي الاجتمـاع في المكان أو الزمـان أو الرتبة، وقـد تقتضي معنى النصرة، فيكون مـا يضاف إليه لفظ ﴿مَعَ﴾ هو المنصور، نحو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ (النحل: ١٢٨)

ويقـال البصـر للجارحـة المعروفة، ولقـوة الإبصار التـي فيها، ويقـال لقـوة القلب المدركة بصيـرة، ويقال لها بصـر أيضًا. يعلم الله سـبحانه كلَّ مـا هو في الأرض من جامدٍ وسـائل، وكل ما يخرج منها من نباتٍ، وكل ما هو عليها من حيوانٍ وإنسـانٍ، ويعلم كل ما ينزل من السـماء من مطر وملائكـة ورحمة وعذاب، وكل ما يصعد إليها من دعاء وملائكة، ويعلم جميع المخلوقات ما خفي وما ظهر، وهـو مع جميـع المخلوقات فـي كل لحظة، ولو لم يكـن معها في كل لحظة لفنيت، فإنه مُوجِدها، وبجوده أشرق وجوده عليها، وهو بصيـر بأعمال العباد، فإنه قدَّرها وأرادها قبل أن توجد، وقد أقدرهم عليها. وقد أجمعت الأمةُ على تأويل قوله سبحانه:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾

(الحديد: ٤)

ونفوا أن يكون المراد بها المعية الذاتية، وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة العلم، والتصوير لعدم خروجهم عن علمه أينما كانوا. وعن ابن عباس: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، أي عالمٌ بكم، وهذا الإجماع منهم إجماع على وجوب تأويل كل ما أوهم ظاهرُه تشبيهَ الله بالمخلوقات.

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

(الحديد: ٥)

له السلطان المطلق، والحكم النافذ في السماوات والأرض، وإليه يصير الخلق فيقضي بينهم بحكمه.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(الحديد: ٦)

قال عكرمة: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: قِصَر هذا في طول هذا وطول هذا في قِصَر هذا. ومعناه أنه يدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار فيجعله زائدًا في ساعاته، ويدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل فيجعله زائدًا في ساعاته. وفي هذا تنبيه على آثار نعمته وآثار قدرته. واختلاف الليل والنهار وطول هذا بقصر ذاك يَجري بحسبان مُطَّرِد في جميع البلدان والأقطار، ومثله اختلاف الفصول باختلاف مواقع الطول والعرض، وهذا الاختلاف أثر من آثار مقابلة الأرض للشمس وحركتها بإزائها. وفي اختلاف الفصول والليل والنهار منافع للناس واضحة بينة، وفيها دلائل على قدرة الإله، ووحدة هذا النظام البديع المُطَّرد، والناسُ جميعهم يعرفون منافع هذا كله، وبعضهم يعرف منافعه ويعرف أسبابه. وقد أرشد الله إلى ذلك كله بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ

مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾

(الإسراء: ١٢)

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بالنيات الخافية في الصدور، وبكل ما يهجس فيها من الخواطر.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾

(الحديد: ٧)

الخلافة: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه أو موته أو عجزه. ويقال: خلف فلان فلانًا: قام بالأمر عنه، إما معه أو بعده.

والأجر: ما يعود على العامل من ثواب العمل، دنيويًا كان أو أخرويًا. ويقال لما كان عن عقد أو ما يجري مجرى العقد، ولا يقال إلا في النفع.

بعد أن بيَّن الله سبحانه أنواعًا من الدلائل على وجوده ووحدته وقدرته وحكمته، وأنه لا يصدر منه إلا ما هو خير ومصلحة، توجه إلى العباد وأمرهم بالإيمان بالله وبرسوله، وبالإنفاق في سبيله. والخطاب موجَّه إلى الناس جميعهم من آمن منهم ومن لم يؤمن، أمَّا من آمن فبطلب الثبات على الإيمان وعدم الزيغ والنفاق، وأمَّا من لم يؤمن فبطلب الإقرار بالله ورسوله ثم الإنفاق. والمخاطبون مختلفون، والخطاب يتوجه إلى كل واحد بما يليق به، كما يقال لأهل بلد من البلاد: صلوا وأنفقوا وأوفوا الكيل، فيفهم كل واحد من الخطاب ما هو لائق به، فمن كان يصلي ثابر على الصلاة، ومن كان لا يصلي صلَّى، ومن كان يُخسِر في الكيل أوفى، وهكذا.

طلب الله سبحانه إلى عباده الإنفاق مما بأيديهم في سبيل البرِّ،

ونبَّههم إلى أن الأموال التي في أيديهم ليست أموالهم على الحقيقة، بل هي أموال الله سبحانه، أنشأها وخلقها وخولهم الاستمتاع بها، ومكنهم من التصرف فيها، فهم خلفاؤه ووكلاؤه، وإلى أن هذه الأموال انتهت إليهم عن غيرهم، وستنتقل عنهم إلى غيرهم، فهم خلفاء عمن قبلهم وسيخلفهم مَن بعدهم، وإذا كان المالُ مالَ الله تداولته الأيدي، فلا وجه للحرص الشديد عليه، وخيرٌ أن يدخره الإنسان عند الله ليكون له أجرُه يوم الحساب من أن يخرج إلى الوارث، أو يخرج بجائحة من الجوائح[11]. وعن مطرف، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر، قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟!» (صحيح مسلم).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

(الحديد: ٧)

كان الظاهر أن يقال: آمِنوا وأنفِقوا تؤجروا، لكنه عدل عن الظاهر إلى هذه الجملة الاسمية، وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق، وفخَّم الأجرَ بالتنكير، ووصف بالكبير، كل هذا للدلالة على فخامة الأجر واستمراره، وتعظيم الإيمان والإنفاق. وقد سمَّى الله ما يعود على فاعل الخير أجرًا؛ لأن الله سبحانه وعد الصالحين أن يجزيهم جزاءً حسنًا، فكأنَّ هناك تعاقدًا بين العبد وربه، واتفاقًا على أن يوفَّى جزاءَ عمله.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الحديد: ٨)

(١١) الجائحة: مصيبة تحل بالرجل في ماله. (المجلة)

﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾: حال من معنى الفعل في مالكم، كما تقول: مالك قائمًا، بمعنى ما تصنع قائمًا.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾: جملة حالية أيضًا، فهما حالان متداخلتان. والمعنى: مالكم كافرين بالله والرسولُ يدعوكم ويتلو عليكم الآيات ويقيم عليكم البراهين، وقد أخذ الله من قبلُ عليكم الميثاق بالإيمان حين ركَّب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر، وأزاح عنكم العلل؟ لا عذر مع هذا كله، فإن كنتم مستعدين للإيمان فقد وجب، وهذا وقته، والأسباب متوافرة، والموانع غير قائمة. فقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ شرطٌ جوابُه (فهذا وقته) أو (فقد وجب). بين الله سبحانه أن لا عذر لأحد؛ لأن الأدلة السمعية قائمة هي دعوة الرسول وآياته، والأدلة العقليَّة قائمة هي دلائل الآفاق والأنفس، ووجود العقل المستعد للنظر والاستدلال. وحمل بعض المفسرين الميثاق على ما هو مشار إليه بقوله سبحانه:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

وهذا الحمل غير لائق؛ لأن الميثاق على هذا النحو[١٢] لم يُعرَف إلا من جهة الرسول، وقبل تصديق الرسول والإيمان به لا يكون قوله سببًا في إلزامهم، وإنما الذي هو سبب الإلزام -كما نفهم- هو الدليل العقلي القائم المشاهد بالحواس، وينصرف العقل فيه بوجوه النظر والاستدلال.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

---

(١٢) هذا جريًا على أن الميثاق في الآية ميثاق خطاب لا ميثاق الأدلة وهما رأيان للمفسرين.

﴿ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الحديد : ٩)

(الآيــة) : العلامة الظاهرة. وحقيقتها شــيء ظاهر ملازم لشــيءٍ آخر غيــر ظاهر، فإذا أدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر. مثلاً: إذا علم شخص شيئًا مصنوعًا علم أنه لا بد له من صانع.

و(البينة) : الدلالة الواضحة عقلية أو حســية. والبيان قســمان: بيان بالتنجيز وهو بيان الأشــياء التي تدل على حال من الأحوال من آثار الصنع، وبيان بالاختيار بالنطق أو بالإشارة أو بالكتابة وما أشبه ذلك.

و(الظلمة) : عدم النور، ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق، كما يعبر بالنور عن أضدادها.

و﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ : واحد وهي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتُســتَعمل في الرقة والإحسان المجردين، وإذا وصف الله بها فليس معناها إلا الإحسان والإنعام.

بعد أن بيَّن الله سبحانه أنه لا عذر في ترك الإيمان لوجود الميثاق ودعوة الرســول بيّنٍ في هذه الآية أن دعوة الرسول موجَّهة إليهم من قِبَل الله ســبحانه رأفةً بهم ورحمــةً، فهو الذي نزل على عبده الآيات البينــات المفصَّلات الواضحات ليخرجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وبذلك قطع العذر ببعث الرسل وأقام الحجة على خلقه.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.

(الحديد : ١٠)

الوراثــة: انتقال قنية إلى شــخص مــن غيره من غيــر عقد ولا ما

يجـري مجـرى العقـد ، وقد وصف الله نفسـه بالـوارث ؛ لأن مصير الأشياء جميعها إليه سبحانه .

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ : الحسـن : كل مبهج مرغوب فيه ، والحسـنة نعمة تنال الإنسان وتسره في نفسه أو بدنه أو أمواله .

والحسـن يقـال فـي الأعيـان والأحـداث والحسـنى تقـال فـي الأحداث .

(الخبير) : الخبرة : معرفة بواطن الأمور ، والخبر : العلم بالأشياء مـن جهة الخبـر . وإذا قيل : الله خبيـر بما تعملون ، صـح أن يكون معناه : الله عالم بأخباركم وأن يكون معناه : عالم ببواطن أموركم .

ومعنى الآيات : أيّ غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله ، والله سـبحانه سيرث السماوات والأرض وما فيهن والأموال صائرة إليه ؟ فإذا لم تنفقوها في سـبيله ذهبت منكم بعد موتكم بغير مقابل فلم تنتفعوا منها بشـيء ، أما إذا أنفقتموها في سـبيله فسـينالكم الحظ والأجر وتكـون مدخرة عنده ، وهذا ندب إلى الإنفاق وحثٌّ شـديدٌ عليـه وتقريعٌ على تركـه ، وكأنه يقول : إنه لا يتصف بهذا عاقل ولا يرضـاه ؛ لأن تصرف العقلاء يجب أن يكـون له باعث ومصلحة ولا مصلحة في ترك الإنفاق ، بل المصلحة في الإنفاق لنيل الأجر ، وهذه الآية أقوى في الحثِّ على الإنفاق من الآية السابقة .

وقد كان هناك قتالان أحدهما أفضل من الآخر وكان هناك نفقتان إحداهمـا أفضـل من الأخرى : كانـت النفقة والقتـال قبل فتح مكة أفضـل من النفقة والقتال بعد فتح مكة ، فالذيـن أنفقوا وقاتلوا قبل الفتـح أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلـوا بعد الفتح ؛ لأن الأولين فعلـوا ما فعلوه عند مسـيس الحاجة إلى النصـرة بالأنفس والأموال لقلة عدد المسلمين وفقرهم وكثرة أعدائهم ويسرهم ولأنه لم يكن

إذ ذاك غنائم تنتظر ولا كان الوثوق بالظفر فكانت النفقة أشق على النفس وكانت الحاجة إليها ملحة، وكذلك شأن القتال، فالنفقة والقتال قبل الفتح من أعظم الأدلة على الإيمان والإخلاص وعلى أنهما ابتُغي بهما وجه الله، وهذا معنى قوله سبحانه:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾

(الحديد: ١٠)

أي لا يستوي هو ومن أنفق بعد الفتح وقاتل. وقد دل على هذا قوله:

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾

(الحديد: ١٠)

نفى اللهُ استواء الفريقين في الأجر، ولكنه أثبت لهما معًا الحسنى وهي المثوبة في الدار الآخرة وهي الجنة ورضوان الله سبحانه وهو خبير بأعمال العباد ظاهرها وباطنها وعالم بأخبارهم وسيجازي على مقدار الأعمال وما يحيط بها من الملابسات وما يدفع إليها من الغايات والنيات.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾:

(الحديد: ١١)

القرض: ما يُدفَع من المال على شرط رَدِّه، وإذا وُصف الله بالكرم فمعناه إحسانه وإنعامه المتظاهران، وإذا وصف الإنسان بالكرم فهو اسم للأفعال والأخلاق المحمودة التي تظهر عليه، ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، وكل شيء شرف في بابه يقال له كريم.

سمَّي اللهُ سبحانه قرضًا ما ينفق في سبيله وفي وجوه الخير ابتغاء مرضاته. والقرض -كما سبق بيانه- ما يُعطَى على شرط الرَّدِّ، ففي

ذلك دلالة على أنه سيرده إلى المنفق.

ثم ذكر صراحة أنه سيعطيه أجرًا كريمًا وأنه سيضاعف هذا الأجر الكريم، ولا يوجد ما هو أبلغ في الحث على الصدقة والإحسان من هذا التعبير، وتفسير قول الله سبحانه:

«هذه يدي بسطتُها أريد قرضًا سأردّه وسأجزي عليه أجرًا كريمًا مضاعفًا» فمن ذا الذي يسمع هذا ولا يبادر إلى الإجابة، ويتمم عقد القرض مع الله؟ فالجملة مسوقة مساق التمثيل وأثرها ظاهر في النفس وهي أبلغ من كل عبارة تقال في الحث على الصدقة. وقد ذكروا أن يهوديًا قال عند نزول هذه الآية: ما استقرض إلهُ محمد حتى افتقر! فلطمه أبو بكر فشكا اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال لأبي بكر: ما أردتَ بهذا؟ قال: ما ملكتُ نفسي أن لطمتُه ولم يقلها اليهودي إلا استهزاءً وحمقًا وجهلًا. (سيرة ابن هشام)

وقد ذكروا في شروط القرض الحسن وجوهًا: أن يكون حلالًا فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وأن لا يكون رديئًا وأن يعطى للأحوج فالأحوج، وأن يكتم الصدقة ولا يُتبعها المن والأذى، وأن يُقصَد بها وجهُ الله دون الرياء، وأن لا يستكثرها وإن كانت كثيرة، وأن تكون من المال المحبوب عنده، وأن لا يرى لنفسه عزة الغنى ويرى للفقير ذلة الفقر، وأن يكون الإنفاقُ في حال رجاء الحياة وطول الأمل.

وقد أكثر الله سبحانه في القرآن من الحث على الصدقات بأساليب مختلفة، وفي سورة البقرة طائفة من الآيات نورد بعضها هنا تتمة لموضوع الصدقة:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾. (البقرة: ٢٦٢- ٢٦٣)

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(البقرة: ٢٦٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

(البقرة: ٢٦٧)

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾.

(البقرة: ٢٧١)

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

(البقرة: ٢٧٢)

ففي هذه الآيات ترغيب في النفقة، وفيها شروط القرض الحسن التي مرَّ ذكرها، وهناك أحاديث عن رسول الله ﷺ مرغبة في الصدقة، وكل هذا يدل على روح الإسلام وحبه للتعاون والتناصر تحقيقًا للوحدة التي يبتغيها وتزهيدًا في المال إذا وجدت مصارفه وبان موضع الحق فيه، وهذا يدل على قيمة المال وعلى أن له قدرًا عظيمًا فإنه وسيلة إلى تحصيل الأجر العظيم من الله ووسيلة إلى أن يعقد المؤمن مع الله قروضًا، وهو وسيلة في إعزاز البلاد وإعزاز الدين إذا ما تعرض المسلم للجهاد فلا يجوز التزهيد في المال على معنى عدم طلبه وعدم جمعه، وإنما يكون التزهيد فيه على معنى

عدم حبه الحب الموجب لادخاره، وكيف يزهد في المال مع أن الله وعد منفقه بالأجر العظيم وبالأمن والمسرة حيث قال:

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟
(البقرة: ٢٧٧)

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات ويعملون بها فصانوا بلادهم وأنفسهم وأيدوا الوحدة الإسلامية والتضامن بين أفراد الأمة، وقويت الروابط بينهم فلم يحقد الفقراء على الأغنياء ولم ينظر الأغنياء إلى الفقراء نظرَ المُدِلّ الفخور، ثم نسي ذلك وقست القلوب فظلم الناس في جمع المال وظلموا في ادخاره، ولا سبيل إلا بالرجوع إلى الله وكتابه، ولا فلاح إلا بالإيمان والتقوى والإنفاق في سبيل الله.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:
(الحديد: ١٢)

السعي: المشي السريع دون العَدْو. وبشَّرْتُه: أخبرتُه بخبرٍ سارٍّ بسط بشرة وجهه، ويقال للخبر السار بشارة وبشرى. والفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة. بعد أن رغَّبَ الله سبحانه في الإنفاق وحثَّ عليه ووعد بالأجر الكريم عليه وبالمضاعفة بيَّن أنَّ ذلك الأجر المضاعف يكون يوم القيامة، وقد اختلف العلماءُ في تفسير ذلك النور: فعن ابن مسعود وقتادة: هو ضياء حقيقي.

وقال بعضهم: هو نور الهداية إلى الجنة ونور الأعمال الصالحة والمعارف الحقة.

وقوله تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف والمعنى: يسعى هداهم بين أيديهم وبأيمانهم كتبهم وسجل أعمالهم، وهي في ذلك نظير قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾

(الحاقة : ١٩)

ونور البصيرة والمعرفة إذ ذاك هو الأحق بأن يسمَّى نورًا، ومقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف، والله سبحانه هو النور الحقيقي، والنور المشتق من نوره هو نور الهداية والمعرفة. ولو كان المراد الضياء الحقيقي لما خص بالسعي بين الأيدي، بل كان يعم جميع الجهات. والتخصيص بالسعي بين الأيدي دليلٌ على أنه عَنى به معنًى آخرَ.

وقوله:

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ ﴾:

أي يقال للمؤمنين في ذلك اليوم: ما تبشَّرون به اليوم هو جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا تتحولون عنها، وهذا الخلود في الجنات هو الظفر والنُّجح العظيم.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(الحديد : ١٣-١٥)

النفاق: الدخول في الشرع من بابٍ والخروج عنه من باب آخر.

انظرونا: قرأ عامةُ قراء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة: انظرونا موصولةً بمعنى انتظرونا، وعامة أهل الكوفة: أنظِرونا

مقطوعـةَ الألف من أنظرت، وذكر الفـراء أن العرب تقول: أنظِرْني وهم يريدون انتظرني قليلًا.

قـال ابن جريـر: والصواب من ذلك قـراءة الوصل؛ لأن ذلك هو المعـروف من كلام العرب إذا أريد به انتظرنـا، وعلى قراءة الوصل يصح أن يكون المعنى: انظروا إلينا.

والقبـس: هـو المتنـاول مـن الشـعلة، والاقتبـاس: طلب ذلك ويستعار لطلب الهداية.

التمِسـوا: أي اطلبـوا، والمسّ: إدراك بظاهر البشـرة كاللمس، ويعبر به عن الطلب، ومنه قوله:

وألمسه فلا أجده

وقول الله سبحانه:

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾

(الجن: ٨)

وأصـل الفتـن: إدخال الذهـب النار لتظهـر جودته مـن رداءته، واسـتعمل في إدخال الناس النار، ويسـتعمل أيضًا فيما يحصل منه العذاب، ومنه

﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾

(التوبة: ٤٩)

ويستعمل استعمال البلاء فيما يدفع إليه الإنسان من شدة.

والتربص: الانتظار بالشـيء مثل تربص غلاء السـلعة أو رخصها وتربـص زوال الشـيء أو حصوله، ويقال: رابني ريبًـا وأرابني إرابة.

والريب: أن تتوهم بالشـيء أمرًا ما فينكشـف عما تتوهمه وسُـمي ريب المنون ريبًا مع أنه لا شك فيه باعتبار الشك في وقته.

والغـرة: غفلـة في اليقظة، يقـال: غررت فلانًـا إذا أصبت غرته

ونلــت منــه ما تريد، وغر الثوب أثر كســره، ومنه قيــل: اطْوِه على غره، وغَرَّه كذا غرورًا كأنما طواه على غرة.

والتمني: تقدير شــيء في النفس، وتصويــره فيها قد يكون عن ظــن وقد يكون عن روية وبناء على أصل، وأكثره ما كان عن تخمين فصار الكذب له أملك، وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له.

والفدية والفداء: حفظ الإنسان من النائبة بما يبذله عنه.

والمأوى: اسم للمكان الذي يُؤوَى إليه أي ينضم إليه.

ويقال: صار إلى كذا أي انتهى إليه في تنقله وحركته.

بعد أن صوَّر الله حالة المؤمنين يوم القيامة وبيَّن أن نورهم يسعى بين أيديهم وأنهم يبشَّــرون بالخلود فــي الجنة صوَّر في هذه الآيات حال المنافقين الذين دخلوا في الإســلام من باب وخرجوا من باب، فهــم في الظاهر مع المؤمنين وفي الباطن مع الكافرين؛ ولذلك قال الله تعالى في حقهم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ١٤٥)

وقــد رُوي عن ابن عباس: بينما الناسُ في ظلمةٍ إذ بعث الله نورًا، فلمَّــا رأى المؤمنــون النــور توجهوا نحــوه، وكانَ النــور دليلًا على الجنة، فلمَّا رأى المنافقــون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم فأظلم الله علــى المنافقين فقالــوا حينئذ: انظرونا نقتبس مــن نوركم فإنَّا كنا معكــم في الدين، قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمســوا النور هنــاك، فضرب الله بين الفريقين بســورٍ وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار.

وهــذا التصويــر ظاهــر على رأي القائليــن بأن النور نــور حقيقي هــو ضياء، وعلــى أن معنى انظرونــا أمهلونا حتى نســير معكم في

نوركم فإنا لا نرى حولنا إلا ظلماتٍ لا نستطيع السير فيها، ويكون الاقتباس واضحًا أيضًا؛ لأنه تناول النور من الشعلة.

أما على الرأي القائل بأن النور نور الهداية فيكون المعنى: انتظرونا نَسِرْ في هديكم معكم ويكون الاقتباس معناه الانتفاع بالهداية ويكون معنى قول المؤمنين لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا: ارجعوا فاطلبوا الهداية من خلفكم لا من عندنا، إما من الدنيا بتحصيل الأعمال الصالحة التي ثمرتها الهداية يوم القيامة وإما من الموقف المُظلِم قبل أن يُشِعَّ نور الهداية للمؤمنين، وكلا الأمرين مستحيل؛ لأن الرجوع إلى الدنيا غير ميسور وحصول الهداية من الموقف المظلم غير ميسور.

وعلى كل حال فتفسير ﴿ٱنظُرُونَا﴾ بـ(انظروا إلينا) فإنكم إذا نظرتم إلينا وقع نوركم أمامنا فأمكن من السير غير واضح؛ لأنهم إذا نظروا إليهم وتقابلوا كيف يمكن السير؟

وسواء أكان النور ضياء أم كان هداية فقد بين الله سبحانه أنه يفصل في ذلك اليوم بين الفريقين بحاجز له باب، باطنه من قبل المؤمنين رحمة وسلام، وظاهره من قبل المنافقين عذاب، وأن المنافقين ينادون المؤمنين: ألم نكن معكم نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ونقيم الشعائر فلِمَ تمتازون علينا وتخصون بهذه النعم؟ فيقول لهم المؤمنون: حقًا كنتم معنا ولكنكم أوقعتم أنفسكم في البلاء وعملتم ما هو سبب في دخول النار وتربصتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف أمرنا ويهون شأننا ويزول من الوجود ظلنا وشككتم في الدين وغرتكم الأماني التي كنتم تقدرونها وتمنون أنفسكم بها من زوال الإسلام وانعكاس أمر المسلمين، ظللتم على هذه الحال حتى جاء أمر الله وهلكتم وفارقتم الدنيا وعجزتم عن اكتساب صالحات

الأعمال وغركم الشيطان وزين لكم النفاق بما أوقع في صدوركم من الأماني وبما لوح لكم من عفو الله، فاليوم لا سبيل إلى النجاة ولا سبيل إلى دفع الفدية والبدل الذي يؤخذ منكم للنجاة من النار، النار أولى وأحق بكم والنار بئس المصير الذي انتهيتم إليه بعد طول التنقل. وعلى هذا فكلمة مولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى لا أنه مشتق منه، وقد يكون معنى المولى: الناصر، أي لا ناصر لكم غير النار.

هذا التصوير لحال المؤمنين وحال المنافقين مما يبعث الرغبة إلى الإنفاق في نفس المؤمن ليزيد نوره في ذلك اليوم ويكون مع المؤمنين الذين يسيرون إلى الجنة كما يسير البرقُ الخاطف، ولا تنالهم أهوال يوم القيامة ولا يكون مع المنافقين الذين يتخبطون في الظلمات ويقتبسون النور فلا يمكنون منه، ويتهكم عليهم المؤمنون بقولهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا.

وقد رغَّب الله فيما سبق من الآيات في الإنفاق على وجوهٍ شتى: أولها: وعد الذين أنفقوا بأن لهم أجرًا كبيرًا. وثانيها: تنبيههم إلى أن هذه الأموال ليست أموالهم، بل هم وكلاء مستخلَفون في التصرف فيها، وثالثها: أنها ستذهب عنهم وتصير إلى الله وارث السماوات والأرض، ورابعها: هذا التصوير القوي لحال المؤمنين وحال المنافقين.

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾

(الحديد: ١٦)

أنى الشيءُ يأنى أنًى إذا جاء وقتُه. والخشوع: الضراعة والانقياد،

وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، وأكثر ما تُستَعمل الضراعة فيما يوجد في القلب؛ ولذلك قيل: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

والحق: ما دعا إليه العقل، وهو الذي من عمل به نجا، ومن عمل بخلافه هلك، وهو مطلوب كل عاقل في نظره وإن أخطأ طريقه.

وذكر الله: إما أن يكون من إضافة المصدر إلى الفاعل، فيكون الذكر وما نزل من الحق شيئًا واحدًا هو القرآن، وللقرآن صفتان: صفة أنه ذكر وموعظة، وصفة أنه حق نزل من عند الله، وإما أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول، فيكون ذِكر الله تذكر الله، وما نزل من الحق هو القرآن. ونظير ذلك:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾

(الأنفال: ٢)

وقد رُوي عن أبي بكر -رضي الله عنه- أن هذه الآية قُرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديدًا، فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وعن أحمد عن أبي الحواري قال: بينا أنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة، فأقبلتُ نحوها فرأيت رجلًا قد خرَّ مغشيًا عليه، فقلت: ما هذا؟ قالوا: رجل حاضر القلب سمع آية من كتاب الله فخر مغشيًا عليه، فقلت: ما هي؟ فقيل:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(الحديد: ١٦)

وهناك قصص كثيرة تدل على مقدار تأثير القرآن في قلوب

سـامعيه، وهذا التأثير يتبع حضور القلب وفهم معانيه وتذوق اللغة العربية وأسـاليبها. وللذين يتدبرون القرآن أحوال عجيبة، وأسـرار تهبـط عليهم من فيـض الله وجوده. أما الذين يتلـون القرآن للتبرك بتلاوته ولاسـتخراج ما فيه من قواعد اللغة العربية ووجوه الإعجاز، فهؤلاء لا ينالهم من جود الله إلا النزر اليسير.

وعن الأصمعي: أقبلتُ من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قَعودٍ لـه فقال: من الرجـل؟ قلت: من بني أصمع، قال: مـن أين أقبلتَ؟ قلتُ: من موضـع يُتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتلُ عليَّ، فتلوت: والذاريات، فلما بلغت قوله سبحانه:

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾

(الذاريات: ٢٢)

قال: حسـبك، فقـام إلـى ناقته فنحرهـا ووزعها علـى من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما، وولَّى. فلما حججتُ مع الرشـيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفتُّ فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرَّ، فسلَّم عليَّ واستقرأ السورةَ، فلما تلـوتُ الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًا! ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت:

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٣)

فصـاح وقـال: يا سـبحان الله! من ذا الذي أغضـب الجليل حتى حلـف! لم يصدقـوه بقوله حتـى ألجأوه إلـى اليمين! قالهـا ثلاثًا، وخرجتْ معها نَفْسُـه. والمعنى: ألم يجئ الوقتُ الذي تخشـع فيه القلوبُ وتلين ضارعةً إلى الله سبحانه عند سماع القرآن، وفيه الذكر والعظة، وقد نزل بالحق من عند الله سبحانه. وتنقاد الجوارح لأوامره

ونواهيـه، وتعكـف علـى العمل بما فيـه، وتتدبر أسـراره وتحافظ عليـه، ولا تزيـد ولا تبتدع كمـا فعلت الأمم من قبـل، حيث كانوا أول أمرهـم يحول الحق بينهم وبين شـهواتهم، وكانوا إذا سـمعوا التـوراة أو الإِنجيل خشـعت قلوبهـم لله ورقَّتْ، ثم لمَّـا طال عليهم الزمان من وقت تنزيل الكتب وبعث الرسل غلبهم الجفاء والقسوة، فاختلفـوا وأحدثوا ما أحدثوه من البـدع والتحريف، فحرَّفوا الكلم عن مواضعه، وحدثت الفِرَق، وانتهى الأمرُ بكثير منهم إلى الفسـق والخروج عن الدين، ورفض ما جاء على لسان أنبيائهم. هكذا نبهنا الله سبحانه لنعتبر بأحوال الماضين.

وقد نبهنا إلى ظاهرة نفسـية مـن ظواهر الأنفس، فإن طول الأمد علـى الحوادث يخلق جدتها، ويذهب رواءها، ويضعف التأمل فيها والحماس لأجلها، وإلف الشـيء يورث التهـاون به؛ ولذلك يحتاج الديـن دائمًا إلى مُذكِّرٍ ومجددٍ، وليس من وظيفة المجدِّد أن يُحدِث فـي الدين جديدًا، وإنما وظيفتـه أن يحافظ عليه كما هو، وأن يعيد إلـى النفوس تفهُّمه وفهمه، وأن يذود عنـه ويبعد ما ليس منه. وقد ورد: «إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها» (رواه أبو داود).

والسنن الإِلهية لا تتبدل، والغرائز الإِنسانية تعمل عملها.

وعلى القادة والمرشـدين أن ينبِّهوا دائمًا إلى هذه الظواهر، وإلى العبرة بأحوال الماضين، اقتداءً بكتاب الله المبين، سبحانه هو أحكم الحاكمين. وما أحسن ما قيل: لا تُكثِروا الكلامَ بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيدٌ عن الله، ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكـم أرباب، وانظروا فـي ذنوبكم كأنكم عبـاد، والناس رجلان: مبتلًى، ومعافًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

(الحديد : ١٧)

هــو تمثيل لأثر الذكر في القلوب. والله الــذي يُحيِي الأرض بعد دثورها ودروسها فتنبت إذا تعهدها العامل بالحرث والعمل، وتعهدها بالسَّــقْي، أو أصابها الغيثُ، يُحيِــي القلوب الميتة إذا تعهَّدها العبدُ بالذكر وتدبر الآيات، وراضها على الصالح من الأعمال، فتعود إلى الرقة بعد القسوة، وتعود إلى الطاعة والانقياد بعد الغلظة والجفوة.

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾

وهــي الحجج الواضحة، والدلائــل الباهرة، وضربنا لكم الأمثال لعلكــم تعقلون وتأخــذون بمقتضي أحكام العقــل، فتحافظوا على التكاليف الشرعية، والأخلاق الراضية.

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾

(الحديد : ١٨)

قــرئ المصدقيــن والمصدقــات بالتشــديد والتخفيــف، وهمــا قراءتــان صحيحتان، وعلى قراءة التشــديد يكون المعنى: إن الذين تصدَّقــوا والذين أقرضوا، وعلى قراءة التخفيــف يكون المعنى: إن الذين آمنوا والذين أقرضوا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾

(الحديد : ١٩)

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ رأيان: الأول: أنه مرتبط

بمـا قبلـه وليس كلامًا مبتـدأً ، والمعنى على هذا : والذيـن آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون عند ربهم ، وهم الشهداء عند ربهم ، فكل مؤمن صِدِّيقٌ ، وكل مؤمن شهيدٌ . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وهو شـهيد ، وتلا هـذه الآية . وإنمـا كان المؤمن صديقًا لأنه كثير الصدق ، وكان شـهيدًا لأن المؤمنين شهداء عند ربهم على أعمـال العباد ، وهم العدول الذين تُقبَل شـهادتُهم . وينبغي أن يُحمَل الإيمـان في هذه الحالة على الإيمـان الكامل . ثم بعد أن أخبر الله عن المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء ، أخبر بأنَّ لهم أجرَهم ونورَهم ، أي لهم ثواب أعمالهم ونورهم اللذَيْن يهتدون بهما إلى الجنة .

والرأي الثاني : أنه كلام مسـتأنف ، وقـد انتهى الأول عند قوله : هـم الصديقـون ، وابتدأ هنا قوله : والشـهداء . والمعنـى على هذا : المؤمنون هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، نظير قوله :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(آل عمران : ١٧٠ ، ١٦٩)

قال ابن جرير : والظاهر أن الإيمان لا يوجب اسم الشهداء ، فهذا غيـر متعـارَف ، والرأي الثاني أولى ، وأنا أيضًـا أرى هذا ، وأزيد على ذلك أن الله سبحانه في هذه الآيات أراد أن يُعطِي حكم أربعة أصناف : حكم المتقين المصدقين ، وحكم المؤمنين ، وحكم الشـهداء ، وقد أشار إليهم سابقًا بقوله :

﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ (الحديد : ١٠)

فهنـاك مـن قاتل قبـل الفتح وبعده لـم يُعطَ حكمًـا إذا لم يجعل

قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ مستأنفًا كما هو الرأي الأول، أما إذا جعل مستأنفًا كما هو الرأي الثاني فإن هذا الصنف يكون قد أخذ حكمًا. والصنف الرابع هم الكفار، وقد حكم عليهم في الآية الآتية:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

(الحديد: ١٩)

هؤلاء الذين كفروا أشير إليهم بقوله سبحانه:

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(الحديد: ١٥)

كما أشير إلى الشهداء بقوله:

﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ ﴾

(الحديد: ١٠)

وبعد أن بين الله سبحانه أحوال المؤمنين، وأحوال المقرضين، وأحوال الشهداء، بيَّن في هذه الآية أحوال المكذبين بالله وآياته، وحكم عليهم بأنهم أصحاب الجحيم، يلازمونها كما يلازم الصاحب الصاحب، لا يفارقونها بل يخلدون فيها ما دامت السماوات والأرض، إلا ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾

(الحديد: ٢٠)

قيل: اللعب: ما رغَّب في الدنيا، واللهو: ما ألهى عن الآخرة. وقال مجاهد: كل لعب لهو؛ لأنه يُلهِي عن الآخرة.

وهــاج: تحــرك إلى أقصى مــا يتأتَّى لــه، أو جفَّ بعــد الخضرة. والحطامُ: الهشيم المتكسر.

والمقصود من هذه الآيات تحقير أمر الدنيا، وتعظيم أمر الآخرة. والدنيــا دار فناء، والآخرة دار بقــاء، والعاقل لا يبيع الباقي بالفاني. واللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر أمور محقَّرات عند العقل لا يجوز أن تكون مقصدًا للعاقل، ويجب أن يكون مقصده الأســمى هو المغفرة والرضوان والنجاة من النار.

فــي الدنيا لعب ولهو يتفكــه الناس بهما، وأكثر مــا يكون الأول للصبيــان، وأكثــر ما يكــون الثاني للشُّــبَّان، وأكثر ما تكــون الزينة للنساء ومَنْ في حكمهن من الرجال. وفيها تفاخر بالأنساب والقدرة وغيرهــا مــن الصفات، وفيهــا مبــاراة في الإكثــار من المــال والولد والجيــوش، وكل هذه عُرضَة للتبــدل والزوال، فهي فانية، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو واللذات، على أنها سريعة الانقضاء، مُذهبة للعمــر وللمــال. وقد ضرب الله مثــلًا للدنيا في ســرعة تقضِّيها وقلة جدواها، وفي بهجتها عند إقبالها وعبوســها عند إدبارها، فقال: إنها كالنبات يســتوي على ســوقه ويخضــرُّ ويُعجَب به الــزراعُ، ثم يجف ويصفرّ ويكون هشيمًا وحطامًا متكسرًا، في الطور الأول جمال وفتنة وســحر للناظرين، وبهجة للنفس وراحــة للعين، وأنس لا يقدر قدره، لكــن هــذا الطور لا يدوم، بل ينقضي بســرعة، ويحــلّ الطور الثاني، وفيه يزول الجمال والسحر والفتنة وراحة العين، ثم لا يبقى من تلك الأعواد البديعة إلا حطام لا تستريح النفس إلى رؤيته وتذروه الرياح.

قــال ســعيد بن جبيــر: الدنيا متاع الغــرور إذا ألهتــك عن طلب الآخرة، أما إذا دعتك إلى رضوان الله فنعم المتاع. لكن الله ســبحانه لمَّا علم حب النفــوس لزخرف الدنيا، وعلم فتنتها وإعجاب الخلق

بها ، أراد أن يحطَّ من قدرها لتضعف شدة الرغبة فيها ، وشدة الحرص عليها ، وليوجه الناس إلى الآخرة بالإحسان في طلب الدنيا ، فهي ذات صورتين : صورة منهما على هذه الصفة التي ذكرها الله سبحانه هنا ، وصورة أخرى جميلة أشير إليها بقوله سبحانه :

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾

(الحديد : ٢١)

وسيأتي بيان ذلك . هي متاع الغرور ، أي الغفلة عن الآخرة ، وعمَّا ينبغي أن يكون عليه الحريص اليقظ .

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

(الحديد : ٢١)

سارعوا إلى الأعمال الصالحة التي هي أسباب مغفرة الله ، وأسباب دخول الجنة ، مسارَعة المتسابقين . وقد وُصِفت الجنة بأنَّ عرضها كعرض السماء والأرض مجتمعتين ، وإذا كان العرض كذلك كان الطول أكثر امتدادًا . والظاهر أن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في أفكارهم ونفوسهم ، وأوسع شيء يقع في نفوسهم هو مقدار السماء والأرض .

وقد جاء في آية آل عمران :

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

(آل عمران : ١٣٣)

ولا أرى فرقًا بين الآيتين فيما تدلان عليه من السعة ؛ لأن السماء تطلق ويراد بها السماوات كما في قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ (فصلت : ١١ ، ١٢)

فتكون الآية في آل عمران قرينة على أن المراد بالسماء هنا الجمع . هذا إذا كان الغرض التحديد ، أما إذا كان الغرض إفادة السعة لا غير فالأمر ظاهر . وقال بعض المفسرين : إن البشارة هنا أعمّ من البشارة في سورة آل عمران ؛ لأن البشارة هنا للمؤمنين ، وفي آل عمران للمتقين . ولا أرى ذلك . ويجب أن يُحمَل المؤمن هنا على المتَّقي ؛ لأن قواعد الإسلام العامة تقضي بأن عصاة المؤمنين يدخلون النار أولًا ويطهَّرون فيها ثم يدخلون الجنة ، فالجنة لم تُعَدَّ لهم وإنما أعدت للمتقين ، وإذا جاز أن يقال إن الجنة أعدت لهم بعد دخولهم النار ، جاز أن يقال إن النار أعدت لهم لأنهم سيدخلونها أولًا . وحمل الآيات بعضها على بعض أولى .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ ﴾ : من الناس من قال : إن نعيم الجنة تفضُّلٌ محضٌ من الله سبحانه غير مُسْتَحَق بالعمل ، واستدل بهذه الآية ، ومن الناس من قال إنه مُسْتَحَقٌّ بالعمل . وعندي أنه لا تنافي بين كونه مستحقًا وكونه فضلًا ، فالذي جعله مستحقًا هو الله صاحب الفضل في ربط نعيم الجنة بالأعمال الصالحة ، وهو الذي قال :

﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦)

وهو الذي قال :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ (الأنبياء : ٩٤)

ووعده حق لا يتخلف ، وهذا الوعد فضلٌ منه ، والله ذو الفضل العظيم ، وإذا كان فضله عظيمًا فثوابه عظيم ، وعطاؤه عظيم .

وصف الله سبحانه الدنيا في الآية السابقة بأنها لعب ولهو، وأنها زينة وتفاخر وتكاثر، وأنها متاع الغرور، وطلب في هذه الآية المسابقة إلى الأعمال الصالحة الموصلة إلى الجنة والمغفرة، وهذه المسابقة في الدنيا لا شك، وإذا كان ذلك كذلك فللدنيا صورتان: صورة جدّ تكون فيها مطية الجنة ومزرعة الآخرة، وتكون ثمراتها نعيم الله ورضوانه ومغفرته، إذا أخلص العبدُ في العمل، واستمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ولازم حدودَ الله لم يتعدَّها، وأدَّى حقوقَ المال كاملةً، وصورة لعب ولهو تكون فيها الدنيا مطية النار، وتكون ثمرتها غضب الله وسخطه، إذا كاثر بالأموال والأولاد، وافتخر واختال، وبخل وحمل الناس على البخل، واسترسل في الشهوات، وأضاع حقوق الله وتعدَّى حدوده، وظلم عباد الله فجمع المال من غير وجهه ثم اكتنزه. فالدنيا متاع الغرور، والدنيا متاع العقل والشرع، غير أن أكثر الخلق لمَّا كانوا مشغولين بالدنيا على الصورة التي صَوَّرها بها القرآن في هذه الآية، أطلق الله فيها القول إطلاقًا، وجاء بهذه الصورة على سبيل النص. ولما كان القليلون منهم هم المشغولين بالدنيا على وجهها الآخر، حبَّب الله إليهم التسابق في طلب المغفرة، ووعدهم الجنة، وكأنَّ هذا إشارة إلى الصورة الثانية من صور الدنيا.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

(الحديد: ٢٢)

اختصت المصيبة عُرفًا بالنائبة، ومنه:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾

(آل عمران: ١٦٥)

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾

(الشورى: ٣٠)

وقد استعمل ﴿أَصَابَ﴾ في الخير أيضًا كما استعمل في الشر، ومنه:

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾

(التوبة: ٥٠)

﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(النساء: ٧٣)

والإصابة في الخير اعتُبرت بالصوب وهو المطر، وفي الشر اعتبرت بإصابة السهم، وكلاهما يرجع إلى أصل واحد. ومعنى برأ: خلق.

ذهب أكثر المفسرين إلى حمل المصيبة في الآية على الشر فقط اعتبارًا بالأشهر فيها وباختصاصها عرفًا بالنائبة، وفسروا المصيبة في الأرض بقحط المطر وآفات الزروع والثمار وغلاء الأسعار وما أشبه ذلك، وفسَّروا المصيبةَ في الأنفس بالأمراض والأوجاع والفقر وفقد الأهل والولد، والكفر والمعاصي.

وذهب بعضهم إلى أن المصيبة هنا تعم الخير والشر، بدليل قوله سبحانه:

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(الحديد: ٢٣)

وأرى ترجيح هذا الرأي الآخَر؛ لأن الكتاب سواء أريد به علم الله سبحانه أو أريد به شيء غير العلم، وهو ما يسمَّى اللوح، شامل لسعادات الأنفس وشقائها، وخيرات الأرض وشرورها، ولا وجه لتخصيص الشرور بأنها ثابتة في الكتاب.

وإنما خصصت الأرض والأنفس بالذكر مع أن علم الله شـامل لما في السماوات والأرض، ولما هو في الجنة والنار؛ لأن ذلك هو الذي يعنينـا الحديث عنه، وهو الذي نشـاهده. لكن إذا أريد بالكتاب ما يسمَّى اللوح المحفوظ فلا يمكن أن يشمل نعيم الجنة وعذاب النار مما هو غير متناه.

كل شيء من الخير والشر في الأرض والأنفس والأبدان ثابت في علم الله قبل أن يخلق الأرض والأنفس والأبدان، وقبل أن يخلق الخير والشـر، بل قبـل أن يخلق العالم ويفطر السـماوات والأرض. وهذه الحلقـات جميعها في سلسـلة الوجود مـن أول حلقة إلى آخر حلقة معلومة لله سبحانه، مربوطة بأسباب وسنن لا تتبدل ولا تتغير، كما أن العلم لا يتبدل ولا يتغير، ولها نظام عام شامل مقدر هو خير كله، والشـر يعرض للأفراد كما يعرض الخير. ذلك كله مكتوب في لوح العلم، وذلك على الله يسير، بل هو واجب لذاته سبحانه، ولا يمكن إلا أن يكون معلومًا مقدرًا.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

(الحديد: ٢٣)

الأسى: الحزن. وحقيقته اتباع الفائت بالغم.

والخيلاء: التكبر عن تخيُّل فضيلةٍ تراءت للإنسان في نفسه.

والفخـر: المباهـاة في الأشـياء الخارجـة عن الإنسـان كالمال والجاه.

والفخور: صيغة تكثير من الفخر.

والـلام فـي ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ تفيد لغـةً جعل أول الكلام سـببًا لآخره.

والمعنى أن الله -سبحانه- أخبر بأن ما يصيب الأرض والأنفس ثابت في كتابٍ لكيلا يشتد حزنكم على ما فاتكم من الخيرات، ويشتد فرحكم بما أعطاكموه. والله -سبحانه- لا يطلب أن لا يكون فرحٌ، وأن لا يكون حزنٌ، بل يطلب أن لا يكون فرحٌ يُطْغِي ويكون معه الأشرُ والبطرُ، وأن لا يكون حزنٌ يُهلك النفس ويفوِّت عليها ثوابَ ما سلب من النعمة. أما الفرح بالنعمة والشكر عليها فغير مذموم، وأمَّا الحزن الطبيعي الذي هو غريزة النفس، والذي لا يُلهيها عن تذكر ثواب الله بالصبر، فلا يمكن النهيُ عنه، وليس أحدٌ إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن الأمر كما قيل: اجعلوا للمصيبة صبرًا، وللخير شكرًا.

والله -سبحانه- لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفاخرونهم؛ لأن الكبر والفخر يبعدان عن تذكر نعمة الله، ويؤذيان عباد الله. ومن علم أن كل شيء مقدر له في كتاب، وأن كل نعمة فمن الله، توجَّهَ بالشكر إليه، ومن الشكر الإحسانُ إلى عباده بالتواضع وإظهار الخشوع لله سبحانه، وكذلك لا يشتد فرحه بما يناله من الخير، ولا يشتد حزنه على ما يصيبه من الشر، خصوصًا إذا تذكر جزاء الصابرين على ما أصابهم، وتذكر أن عليهم صلوات الله ورحماته. وهذه العقيدة: عقيدة أن كل شيء من عند الله سبحانه، تحفز النفوس إلى طلب الآخرة، وإلى التسامح، والبعد عن المشاحة[١٣] في التعامل، وترك الحسد والحقد. ومن لم يفرح لموجود ولم يحزن لمفقود، يهون عليه أمر الدنيا، ويأخذها من ناحية الخير التي تؤدي إلى مغفرة الله ورضوانه.

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ (الحديد: ٢٤)

---

(١٣) المشاحة: المضايقة والمنازعة.

الذيــن يبخلون، بدل من كل مختال، ذلك أن المختال الفخور الذي يطغيــه الرزق ويرى المال نعمة توجب العز، يحرص عليه غالبًا، ويرى الحرص فضيلةً يدعو الناس إليها، فتراه يبخل، وتراه يأمر الناس بالبخل، ويعده مذهبًا ورأيًا محمودًا يستحق الدعوة والاحتجاج له، لكن الله غني عــن الإِنفاق، محمود في ذاته، لا يضــره إعراض الناس عن الإِنفاق، ولا يضره ألا يتقرب الناس إليه بالبذل، فمن يتولَّ منهم ويُعرِضْ عن أوامره فهو الظالم لنفسه، وهو الذي حرمها الأجرَ، والله غني حميد.

وهنا شيء لا أرى أن أفوِّته، وأرى من الواجب أن أقول كلمة فيه: أكثرَ العلماءُ من التعلقِ بهذه الآيات:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾
(الحديد: ٢٢، ٢٣)

والاســتدلال بها على مذاهبهــم، فالجبرية وجدوا فيهــا دليلًا على الجبر؛ لأن ما هو في كتاب الله لا يمكن أن يتخلف، ولا بد من حصوله، فلا يقدر العبد على مخالفته، والقدريةُ وجدوا في قوله: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ مستندًا للاختيار والتمكن مــن فعل الفــرح وتركه والحزن وتركــه. والمرتاض على الاســتدلال، والمُلِــمّ بقواعد الدين العامة، ومن تهديه الفطــرةُ والبديهة إلى الحق، يَعجَبُ من الجبرية ويَرثى لهم، كما يُشفِق على القدرية.

الأمة مُجمِعة على شــمول علم الله ســبحانه للأشــياء، لا فرق في ذلــك بين قدري وجبري، ومجمعة على أن علمه حق مطابق للواقع، وســيطابق الواقع كلما برز منه شــيء إلى الوجود، ولو لم يكن الأمر

كذلك لانقلب علمه جهلًا، ولو لم يكن كذلك لكان جاهلًا، تعالى الله سبحانه عما يقول الظالمون.

والأمة مجمعة على فائدة إرسال الرسل، والله يقول:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(الإسراء: ١٥)

فهو يقرر أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قطع العذر، وبعد البيان ونصب الأدلة.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

(الليل: ١٢، ١٣)

والأمم جميعها لا فرق بين المتدينين وغيرهم مجمعون على فائدة التربية والتهذيب، وفائدة القدوة الصالحة، وعلى ضرورة وضع القوانين الزاجرة لحماية الناس بعضهم من بعض.

هذا كله يوجب بلا ريب اعتراف البشر واعتراف الأديان بوجود الاختيار عند الإنسان، وبأنه يستطيع اختيار أحد الطريقين: طريق الخير أو طريق الشر. ويؤكد هذا أيضًا قول الله سبحانه:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

(البلد: ١٠-١٣)

إلى آخر الآية، وقول الله سبحانه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾

(الأنبياء: ٩٤)

وقول الله سبحانه:

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

وقد وَعد المتقين الجنة، ووعد العصاة النار. ولا شبهة بعد هذا في أن القول بالجبر يصادم العقل، ويناقض ما أجمعت عليه الأمم، ويهدم حكمة إرسال الرسل وحكمة الشرائع، سواء أكانت وضعية أم سماوية، والقائلون به يجب عليهم أن يتركوا أنفسهم في الحياة تسيرها الرياح كما تشاء، وليس لهم أن يتعلقوا بقواعد التهذيب، وليس لهم أن يلوموا فاسقًا ولا كافرًا، ولا مرتكب أية كبيرة أو أية معصية. وهذا قول نعوذ بالله منه ومن شروره. واتفاقُ الأمم جميعها في القديم والحديث على خلافه دليل على أنه مناقض للفطرة كما هو مناقض للعقل.

نعود إلى الحديث عن علم الله وعن إثبات كلِّ شيء في الكتاب، فنقول: إن علم الله –سبحانه– يجب أن تتبعه إرادته، والعلم صفة انكشافية لا إلزام فيها.

والعلم الصحيح هو المطابق للمعلوم مطابقة تامة، فلا أثر لعلم الله –سبحانه– في أفعال العباد؛ لأن أفعال العباد لا تتبعه، بل علم الله هو الذي يتبع أفعال العباد، والله –سبحانه– في مرتبة وجوده قبل أن يخلق الخلق قدر الخلق ووضع هذا النظام التام الذي هو خير كله، والذي يعرض فيه الخير والشر للأفراد، أما النظام نفسه فلا يعرض له الشر بحال؛ لأنه هو الصادر عن الجود، وعن الحكمة، وعن العلم التام، وقد علم الله –سبحانه– ما سيختاره كل أحد من خلقه فوضعه في كتاب، وفعل العبد تابع لاختياره المحض لا ارتباط له بالعلم إلا ذلك الارتباط الحاصل بين العلم والمعلوم، وإذا كان كذلك فلا دلالة في الآية على الجبر، وهي كغيرها قد تدل على الاختيار.

لكن القدر سلوى المؤمن، والمؤمن مطلوب منه أن يتحرى وجوه الصواب، ويروّض نفسه على الفكر وسؤال أهل الذكر،

وعلى التدبر وأخذ الحيطة، وتقليب وجوه الرأي، ومشاورة العقلاء، فإذا قدر له أن يصيب الخير ووجه الحكمة وينال النعمة، طلب الله -سبحانه- منه ألَّا يُطغِيَه الفرح وتطغيه النعمة، وأن يذكر أن هذه النعمة ثابتة في كتابٍ لم يكن هناك بد من حصولها، ولم يكن هناك بد من اختيارها إذًا كانت مما تقع تحت الاختيار، وإذا قدر له الأخرى وأصابه شر، طلب الله منه ألا تذهب نفسه حسرات، وأن لا يلهيه الحزن عن تذكر ثواب الله، وأن يذكر أن هذا مقدر في كتاب، ولم يكن هناك مفر منه، ولم يكن هناك بد من أن يختاره إذا كان ذلك مما يقع تحت الاختيار.

والحق أن هذا تهذيب من الله سبحانه، إذا روعي كان المؤمن دائمًا رضيَّ النفس، صابرًا على البلاء، غير فخور بالنعمة، وكان مطمئنًا، هادئ البال، مثلوج الصدر، غير ضجر بالحياة ولا بَرِمٍ بها، ولا مزهوّ بالنعم، يُدِلّ على الناس بما أعطاه الله.

أشرتُ فيما مضى إلى أن هذا النظام كله خير إذ هو صادر عن الجواد الكريم، وكله حكمة لأنه صادر عن العليم الحكيم، فلا يعرض له الشر قط، وكله خير. وإذا كان هناك في الوجود شر فذلك الشر يعرض للأفراد، ويعرض للجزئيات، وإذا لاحظنا هذا أمكن أن تعرض لنا شبهة الجبر، وهذه الشبهة لا يمكن أن تعرض من ناحية التسجيل في الكتاب، ولا من ناحية أي دليل آخر غير هذا، لكن عروض الشبهة ينفيه العقل، والأدلة القائمة، وإجماع الأمم، والفطرة. والبحث عن التوفيق بين ما تهدي إليه الفطرة، وما يهدي إليه العقل من أن النظام خير كله، بحث عن سر القدر لا يجوز للمؤمن أن يدخل فيه وأن يعدو طوره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحديد : ٢٥)

الوزن : معرفة قدر الشيء. والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدَّر بالقبَّان ونحوه. وقوله تعالى :

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾

(الرحمن : ٩)

أمر بمراعاة المعدلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال.

والقسط : النصيب بالعدل. والبؤس والبأس : الشدة والمكروه.

والغيب : يستعمل في كل غائب عن الحواس وعما يغيب عن علم الإنسان. ويقال للشيء غيب وغائب باعتبار الناس لا باعتباره سبحانه وتعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء.

طلب الله -سبحانه- في الآيات السابقة الإيمان به والإيمان برسله، وبيَّن أنَّ ما يدعو إليه الرسل مُنزَل من عنده، أراد الله -سبحانه- به إخراج الناس من الظلمات إلى النور رأفةً منه ورحمةً بهم، وفي هذه الآيات بيَّن الغرضَ من إرسال الرسل وإنزال الكتب والموازين، وهو أن يقوم الناس بالعدل، فيأخذ كل واحد حقه لا غير، ويعطي حقَّ غيره. وما اشتملت عليه الكتب السماوية جميعه، سواء أكان متعلقًا بالعقائد أم بالأخلاق أم بنظام الأسرة والمجتمع أم بقواعد التعامل بين الأفراد والجماعات، عدل كِله، وحق كله، وفي العمل به نصفةٌ وقيام بالقسط. فإذا نَزَّهْتَ الله -سبحانه- عما لا يليق به وآمنتَ به وبرسله، فذلك عدل وإعطاء للحق. وإذا تخلقتَ بالأخلاق الحقة الفاضلة، فقد زكيتَ نفسكَ وأعطيتَها حقَّها. ويتبع

ذلك أن تعامل الناس بالحسنى وتعطيهم حقهم. وإذا عاملت الناسَ على وفق أحكام الله المنزلة، فقد أعطيتهم حقهم وأخذت حقك وقمت بالقسط.

أرسل الله الرسل بالبينات والأدلة والمعجزات الدالة على نبوتهم، وأنزل الكتب لتكون معهم يدعون الناس إلى هديها، وفي هذه الكتب مقاييس العدل وموازينه، وهذه المقاييس والقواعد هي الميزان الذي أنزله الله سبحانه، فليس الميزان شيئًا آخر ماديًا غير ما في الكتب.

أنزل الله الميزان ليعدل الناسُ، كما أنزل الحديدَ، أيْ خَلَقَه وجعله ذا بأس وشدة ونكاية، وأودع فيه منافعَ لا عدد لها؛ ليستعمله الناسُ فيما خُلِق له، وليستعمله الناسُ في النكاية بأعداء الله الظالمين عباده، وفي الانتصار للحق، حتى يعلم الله من ينصره وينصر رسله وهو غائب لا يبصره. والله قوي عزيز. والقوي هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يمسه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور ولا عجز. والعزيز هو الذي لا يُقهَر ولا يُغلَب ولا يُعارَض.

فسَّرْنا إنزالَ الحديد بخلقه وتهيئته، وذلك مرويٌّ عن الحسن، ونظيره قوله سبحانه:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾

(الزمر: ٦)

وتبعنا في تفسير الميزان جمهورًا من العلماء. وعند الغزالي أنه ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته.

ذكر الله -سبحانه- الكتاب والميزان والحديد، وقرنها بعضها ببعض، فالكتاب إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف،

والميزان إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام، والحديد إشارة إلى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمرَّدوا، والله سبحانه وهو العليم الحكيم لا يضع للخلق من القوانين إلَّا ما فيه مصلحتهم، وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه، وغيرهم لا بد له من الوازع وهو سلطان الحاكم المشار إليه بالحديد؛ ولذلك وجدت التعازير في الإسلام، ووجدت الحدود، أمَّا ترك الناس أحرارًا من غير وازع فهو ضار بالمجتمع الإنساني، وموجب للتراخي في إقامة العدل واتباع القانون، جُرِّبَ هذا في العصور المختلفة، وقامت الشواهد الناطقة في العصر الحديث عليه، وعلم أن الأمم التي لم تُحَطْ أخلاقُها بوازعٍ انحدرت إلى الدرك الأسفل، وأضلتها الشهوات. وقد كانت دُرَّةُ عُمَرَ سلكًا قويًا للنظام الإسلامي، فلما رفعت ضعف ذلك الرباط.

وقد ذكر الله للحديد فائدتين: الأولى: أن فيه البأس والشدة والنكاية، فآلات الحروب جميعها منه أو تحتاج إليه، وبخاصة إذا أريد بالحديد جنس المعادن، كما عليه بعض المفسرين، فمنه الرماح والسيوف والدروع قديمًا، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات، وسفن البحر على اختلاف أنواعها، وعلى الإجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس بما لا يدع مجالًا للبحث.

والفائدة الثانية: أن فيه منافع للناس، وذلك واضح، فما من شيء من ضروريات الحياة أو كمالياتها إلا وللحديد دخْلٌ فيه، فهذه سفن الملاحة وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات، وأدوات الحرث والطحن والغزل والنسيج، وآلات البناء ومواده، وسيارات الركوب، وآلات الطباعة والطبخ والأكل، وأدوات الزينة،

كل ذلك من الحديد، أو يرجع إليه، أو يحتاج إليه.

امتن الله -سبحانه- على خلقه بالحديد، ولم يمتنَّ في هذا الموضع بما هو أغلى قيمة منه كالذهب والفضة؛ لأنه أعم وجودًا، وأسهل تناولًا، وأكثر فائدة، ومن نعمة الله -سبحانه- أن سهَّل كلَّ ما تشتد إليه الحاجة وجعل وجوده أكثر. وأعظم الأشياء قيمة في الحياة أكثرها وأسهلها تناولًا، وأحقر الأشياء قيمة في الحياة أندرها وجودًا وأغلاها ثمنًا، فما هي قيمة الجواهر الكريمة للحياة إذا قيست بالهواء والماء، أو قيست بالبُرِّ والشعير؟ وهكذا إذا نظرتَ إلى الأطعمة وجدت ما هو لازم منها وضروري، أرخص مما هو غير لازم.

بعد أن امتن الله بالكتب والميزان والحديد، بيَّن أنه قوي عزيز مستغن عن خلقه، وأنه لم يفعل ذلك إلا لإقامة العدل والدفاع عنه. والدفاعُ عن العدل هو نصرة الله والرسول، وبهذا البيان أعذرَ من لم ينصره، وأشار إلى أنه لا عذر له. وقد قال بعض الناس في قوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾: أي وليعلم حزب الله ومتبعوه من ينصر الله ورسله، فرارًا من توهُّم أنه حدث له علم بعد أن لم يكن، والواقع أنه عالمٌ من ينصره قبل أن ينصره، ولا داعي إلى هذا، فإن المعنى: ليعلم من ينصره علمًا يتعلق به الجزاءُ، وذلك لا يكون إلا بعد وقوع النصرة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

(الحديد: ٢٦)

نوح أول الرسل إلى الأرض، وإبراهيم قد انتسب إليه أكثر الأنبياء، وعظم في كل الأديان، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الأربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وهو من

ذريــة نوح أيضــا ، فالنبوة والكتــاب لا تخرج عــن ذريتهما ، ولذلك خصا بالذكر .

وقوله سبحانه :

﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

معنــاه أن بعــض هــذه الذريــة اهتــدى بكتــب الأنبيــاء واتبعها ، والبعض فســق عن أمر ربه ، فخرج على الدين جملة وكفر به أو بقي فيه وارتكب الإثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾
(الحديد : ٢٧)

التقفية : جعل الشيء في أثر الشيء على الاستمرار .

والآثار : جمع إثر بالكسر ، تقول : خرجت على إثره أي : عقبه .

والرأفة والرحمة : اللين والشفقة .

والرهبانية : الخصال والأفعال المنســوبة إلى الرَّهبان بفتح الراء وهو الخائف ، فعلان من رهب كخشيان من خشي .

والابتــداع : ابتــداء أمر لــم يحتذ فيه علــى مثــال . والبدعة منه ، وسيأتي بيانها .

ومعنى الآيات أن الله –ســبحانه– أرسل عقب نوح وإبراهيم على التتابع رســولا بعد رســول حتى انتهى الأمر إلى عيسى فأعطاه كتابه المســمى بالإنجيــل ، وجعــل الله في قلــوب الذين آمنوا بــه واتبعوه رأفــة ورحمة على عبــاده ، وجعلهم أيضــا رحماء فيمــا بينهم ، كما

كان المؤمنون في أمة محمد ﷺ ثم زاد الله في ألطافه معهم حتى قويت دواعيهم إلى الطاعة والتشدد في العبادة، فأحدثوا الرهبنة وابتدعوها ابتغاء رضوان الله ومغفرته، ولم يكتبها الله -سبحانه- عليهم.

أحدثوا هذه الرهبنة فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها ورعايتها، ولكنهم تركوها باطنا، وضعفت عندهم دواعي التشدد في الطاعة، فأخلّوا بما عاهدوا الله عليه ونذروه، وبذلك فسقوا وخرجوا على العهد، فليس لهم حظ من الأجر، وهؤلاء كثيرون.

أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد وحافظوا عليه فقد وفاهم الله أجرهم.

ومعنى تلك الرهبانية التي ابتدعوها: تحمل الكلف الزائدة على ما كلفوا به، فهم قد زهدوا في الدنيا ونسكوا، وحببت إليهم الخلوات واعتزال الخلق. لبسوا الخشن، وأكلوا الغليظ من الطعام، وتركوا النساء، وتعبدوا في الكهوف والغيران، وخلصوا أنفسهم للعبادة متحملين ضروب العنت والمشقة حبا في طاعة الله.

هذه أوصاف أتباع عيسى كما وصفهم القرآن، فما الذي بقي من أوصافهم وأوصاف أتباع محمد؟

ندع هذا تجيب عليه الحوادث، ويجيب عليه الواقع.

وقوله سبحانه: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ إما صفة لرهبانية، أو مفسر لعامل محذوف تقديره: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. والاستثناء في قوله:

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾

منقطع، ومعناه لكن ابتدعوها

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

(الحديد : ٢٨)

من الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بالأنبياء قبل محمد ﷺ طلب إليهم أن يؤمنوا به، ووعدوا بنصيبين من الأجر: نصيب على الإيمان بالأنبياء قبله، ونصيب على الإيمان به، ووعدوا أيضا ذلك النور الذي يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة هاديا لهم إلى الجنة، ووعدوا المغفرة على ما فرط منهم من العصيان. ومن الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بمحمد ﷺ طلب إليهم التقوى والاستمرار على الإيمان، ووعدوا بنصيبين من الأجر أيضا: نصيب على إيمانهم به ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله، كما وعدوا النور والمغفرة.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾

(الحديد : ٢٩)

اللام في ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ ﴾ زائدة، بدليل القراءة الثانية: ليعلم أو لكي يعلم.

كان بنو إسرائيل يقولون: إن الوحي والرسالة فيهم، والشرع والكتب لهم وحدهم، خصوا بهذا كله، وموسى آخر الأنبياء لا تنسخ شريعته. فنفى الله -سبحانه- هذه المزاعم، وبين أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، ولا يملك أحد أن يخص به واحدا أو يخص به أمة، فهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم أو بغيرهم، ولا يملكون حصر الرسالة فيهم.

نفى الله هذه المزاعم حيث طلب إليهم أن يؤمنوا بمحمد، وبين لهم أنهم لا ينالون النور والمغفرة إلا بالإيمان به، أو حيث طلب

من أمة محمد الاستمرار على الإيمان به، وبين لهم أنهم لا ينالون المغفرة إلا بذلك. وعلى كلا الحالين فهناك فضل لمحمد ﷺ ثابت من الله، والإشعار بهذا الفضل إعلام لبني إسرائيل وغيرهم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأنه صاحب الفضل العظيم.

لم يذم الله -سبحانه- أتباع عيسى على الابتداع، لكنه ذمهم على عدم رعايته، فهل الشأن في الإسلام كهذا أو للبدعة شأن آخر؟

عن أبي وائل عن عبد الله قال: «خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا طويلا وقال: هذا سبيل الله، ثم خط لنا خطوطا أخرى عن يمينه وعن يساره وقال: هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

(الأنعام: ١٥٣) (سنن الدارمي).

وعنه ﷺ «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد. أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». (صحيح البخاري)

وكان عمر -رضي الله عنه- يقول: «إنما هما اثنتان: الكلام والهدي، فأحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها، إن كل محدثة بدعة».

وقال مالك: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة. والمبتدع بإحداثه جديدا أنزل نفسه منزلة الشارع».

فهـذا يدل علـى ذم البدعة في الإسـلام، لكن تمييـز البدعة من غيرهـا قد يكون سـهلا وقد يدق، إلا إنه يجـب ألا يغيب عن الفكر هـذه القاعدة، وهي أن العبادات من الأمور التي وضعها الله سـبحانه لمصلحـة عباده، فلا يجـوز أن يزاد في العبادة شـيء على ما ورد به الشـرع، فلا تستحدث عبادة جديدة، ولا يزاد شيء في كمية عبادة مشـروعة أو في كيفيتها وهيئتها، ولا يلتزم وقت معين في عبادة لم يـرد فيها تعييـن، وكما تكون البدعة في إحـداث جديد، تكون في ترك شيء من الأشياء المباحة على سبيل التدين والتعبد، كترك نوع مـن الأطعمة ونوع من اللباس أباحه الشـارع لكنه تركه زهدا وقصد بذلـك العبادة، في هذه الحالة وضع نفسـه منزلة الشـارع في اعتبار الترك عبادة، والشـارع لم يشـرع ذلك إلا فيما عينه، لكنه إذا ترك لا علـى نية العبادة لم يكن الترك بدعة. وأهم خصائص البدعة قصد التعبد والتدين فيما أحدث، سواء أكان فعلا أم تركا.

ومـادة بدع تـدل على الاختراع على غير مثال سـابق، ومن ذلك قوله سبحانه:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ١١٧)

أي مخترعها على غير مثال سابق متقدم، وقوله سبحانه:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٩)

معناه: ما كنت أول من جاء برسـالة من عند الله. وبناء على هذا يقال: ابتدع فلان بدعة: أي اخترع طريقة لم يسبقه إليها سابق، ثم خصت البدعة في لسان الشرع بعمل لا يوجد دليل عليه من الشرع، علـى أن يقصد بهـذا العمل المبالغة في التعبـد، وعلى أن يقصد به مضاهاة الأمور الشـرعية، ويلبس به على النـاس، ويوهم واضعه أن له أصلا في الشريعة.

بناء على هذا لا تشمل البدعة شيئا مما أحدثه الناس لمصالحهم الدنيوية النافعة في الزراعة والتجارة والأكل والملبس والحروب وطرق المواصلات وطرق نقل الأخبار، ولا يكون استعمال شيء من هذا ابتداعا، وإنما هو انتفاع بمباح، وبزينة أخرجها الله لعباده.

وملاحظة ضوابط البدعة يساعد كثيرا على معرفة البدعة. وقد قلنا إن أهم المميزات والخواص أن يحدث الشيء على أنه دين يتعبد به، وعلى أن يقصد فاعله التعبد والتدين والتقرب إلى الله سبحانه به.

هناك أمور قد تظن بدعا وهي عبادة، مثلا: تدوين الحديث، وتدوين اللغة، ودراسة علم الكلام، والمنطق، ودراسة جميع المعارف النافعة، هذه اخترعت على غير مثال سابق مع أن المسلمين يعتقدون أنها عبادات، وفي الحق أنها عبادات، وسبب ذلك أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» (متفق عليه) والفقه في الدين موقوف بلا شك على الإحاطة باللغة، والحرص على أن تكون سليمة، موقوف على التدوين، وحماية العقائد الإسلامية والحجاج للإيمان بالله والرسل، وأصله موجود في الكتاب، موقوف على دراسة الكلام والمنطق، فلهذه الأشياء سند من قواعد الدين العامة، وسند من المصالح المرسلة، وخاصَةُ البدعة ألا يكون لها سند.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر : ١ - ٣)

أخبر الله سبحانه في هذه الآيات بأن الإنسان في خسر وهلاك، إلا من آمن وعمل صالحا، وتواصى بالحق، وتواصى بالصبر، وأقسم على هذا الخبر بالعصر.

﴿وَالْعَصْرِ﴾ : يطلق ويراد به الدهر، وهو جملة الزمان الذي تقع الحوادث فيه. ويطلق ويراد به جزء معين منه، وهو وقت العشي الذي هو وقت صلاة العصر المعروفة.

والخسر والخسران : ذهاب رأس المال أو انتقاصه. وقد ينسب إلى الإنسان فيقال : خسر فلان، وقد ينسب إلى فعله فيقال : خسرت تجارته. وأكثر ما يقال الخسران في المقتنيات الخارجة عن الشخص كالمال، وقد يقال على الأحوال النفسية والمعنوية كالإيمان والثواب. وكل خسران ذكر في القرآن فقد أشير به إلى تعاطي ما يخف به الميزان يوم القيامة، وقد اختلف العلماء في العصر الذي أقسم الله به، فقال قوم إنه الدهر لاشتماله على الأعاجيب، فيه السراء والضراء، والنعماء والبأساء، والصحة والسقم، والفرح والحزن، والغنى والفقر، والعز والذل، والهناء والشقاء، والحرب والسلم، والصداقة والعداوة.

ولما كان الناس يضيفون المصائب والنوائب إلى الدهر ويشكون منه ويألمون، حتى قيل :

كـل مـن فـي الـكـون يشكو دهـره

لـيـت شـعـري هـــذه الـدنـيـا لـمـن ؟

أراد الله –سبحانه– أن يبين بهذه القضية وهذا القسم أن الخسران من عمل الإنسان في الدهر لا من الدهر نفسه ، وأن الدهر نفسه خلق ليكون موضعا للطاعة وظرفا للخير ، وإذا كان يوجد الشر فيه فذلك مـن عمل الإنسـان لا من عمل الدهر . وقال قـوم : إن المراد بالعصر وقـت العشـي ؛ لأن فيه صلاة العصر وهي الصلاة الوسـطى الفاضلة التي خصها الله بالذكر في قوله :

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ (البقرة : ٢٣٨)

وذهبت طائفة إلى أن المراد وقت العشـي ، لكنه ليس العشـي في يـوم مـن الأيام ، بل العشـي في الدهر كلـه جملة ، وذلك العشـي من الدهـر هـو وقت رسـالة محمد ﷺ فإن هـذا الوقت هو آخـر الدهر ، كما أن العشـي آخر اليوم . وقد استأنسـوا لهذا بمـا روي من أنه ﷺ قـال : « إنما مثلكـم ومثل من كان قبلكم من الأمم مثل رجل اسـتأجر أجيـرا فقال : من يعمل إلى الظهر بقيـراط ؟ فعملت اليهود ، ثم قال : مـن يعمل من الظهر إلى العصر بقيـراط ؟ فعملت النصارى ، ثم قال : مـن يعمل من العصر إلى المغـرب بقيراطين ؟ فعملتم أنتم » (صحيح البخاري) . وعلى هذا يكون القسـم بزمان الرسول ﷺ أقسم به كما أقسـم بمكانه فـي قولـه : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ (البلد : ١ ، ٢) تعظيما لزمانه ومكانه ، وفيه تعظيم له ﷺ وتشريف وإعـلاء وإظهار لمكانته وجليل قدره وأيًـا كان المراد من العصر فهو زمان مصنوع مخلوق ، أقسم الله به كما أقسم بالشمس والقمر ومواقع النجـوم وبالليل والنهار والضحى وغيـر ذلك مما هو معروف ، وهذه الأقسام جارية على العادة من توكيد الأخبار بالأقسام والله –سبحانه–

غنـي عن ذلك لكـن المخاطبين الجاحدين في حاجـة إليها ، ولا يلزم أن يكون القسـم بشـيء يخشـى المقسـم إذا حلف به وحنث أن يقع تحت المؤاخذة بل قد يكون القسـم بشـيء من هـذا وهو لا يصح أن يكـون في جانب الله ، وقد يكون بشـيء له قدر وقيمـة في ذاته وعند المقسم ، ويكون القسم به للدلالة على قدره وخطره ومكانته وفوائده والمصالح المرتبطة به ، وأقسام الله -سبحانه- من هذا الباب .

ونحـن لا نشـك فـي أن أكثر ما أقسـم الله -سـبحانه- به لا يعد شـيئًا مذكورًا إذا قيس قدره بجانب الله -جل وعز- فهي مخلوقة له لا تنال شرف الوجود إلا بإشراق الوجود عليها منه ، لكن موجوداته متفاوتة الأقدار ، ونوع أشرف من نوع ، وفرد من النوع أشرف من فرد آخـر منه ، وقد ارتبطـت بجميع الموجودات منافـع ومصالح للعباد فأكثرها فائدة هو أعلاها قدرًا ، فإذا أقسـم الله -سـبحانه- بشيء من مصنوعاتـه ، دل القسـم على عظم ذلك الشـيء وكثير منافعه ، وقد يدل القسـم على تأكيـد وجوده للرد على من ينكره كالقسـم بيوم القيامـة ، وقد يـدل على غير ذلك بحسـب مواقع القسـم وما يتبع المقسَم به من الصفات .

ومعنى القضية التي أقسـم الله -سـبحانه- عليها أن كل فرد من أفراد الإنسـان ممن يصح أن يخاطب ويتوجـه إليه التكليف ويصح أن يمـدح ويذم ويثـاب ويعاقب يحيط به الخسـران بمـا ركب فيه من غرائز الشـهوة وحب الانتقام والحرص علـى الدنيا وحب الجاه والشهرة والنفوذ والاسـتعلاء وتلك الغرائز والصفات تدعوه دائمًا إلى ركوب الجور وعدم القصد وسـلوك سـبيل الفساد ولا ينجيه إلا الإيمـان الذي يدعو إلـى العمل الصالح والتواصـي بالحق والصبر ، اسـتثنى الله -سـبحانه- الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يبين ما

يجب الإيمان به ولم يذكر ما هي الأعمال الصالحة المنجية، ولا شبهة في أنه كان معروفا منذ بدء الرسالة ما يجب الإيمان به ومنذ أرسل محمد ﷺ وهو يدعو إلى الإيمان بالله وحده وإلى الإيمان باليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وقد سئل ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» (صحيح مسلم)، وهو مطابق لقوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

وقوله:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥)

والإيمان بالرسل والكتب يستلزم الإيمان باليوم الآخر.

وقد اشتمل القرآن في سوره على بيان الأعمال الصالحة غير أنها لم تكن كلها معروفة منذ بدء الرسالة، ولم يتم بيانها إلا بعد أن تم التشريع وتم نزول القرآن، وقد كانت المشروعات تبدل بالنسخ ولم يستقر الأمر إلا بعد أن قبض رسول الله ﷺ فاستقر أمر التشريع، وعلى ذلك فالأعمال الصالحة التي يطالب بها كل شخص هي المعروفة في زمنه، ومن الأعمال الصالحة ما جاء في الأديان جميعها ولم يحصل فيه تبديل ومنها ما حصل التبديل في صوره ولم يحصل في جوهره.

والإيمان: تصديق وإذعان لا أثر للريب فيه وهو عقد القلب الذي يلازمه طمأنينة النفس وزوال القلق والإيمان على هذه الصفة تصاحبه آثاره حتمًا ولا تنفك عنه إلا حين الغفلة، أما الإيمان الذي لا تلازمه الآثار فهو المنطوي على الشك والريب وهو إيمان لا يعتد الله سبحانه به:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾
(الحجرات: ١٥)

والإيمان الحق لا تنطوي حقيقته على الأعمال فهي زائدة عليه، لكن مناط النجاة مرتبط بهما معًا، والإيمان وحده غير كاف في النجاة، والآية التي نفسرها نص قاطع في ذلك لا يحتمل التأويل وهي وعيد كاف للزجر رادع للعصاة ولا يجوز لأحد أن يتكل على غير الإيمان والعمل الصالح، فالله -سبحانه- يخبر أن كل إنسان واقع في الخسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقد شرط الله للنجاة بعد الإيمان والعمل الصالح، التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وبين أن كمال الإنسان في نفسه لا يكفي حتى يسعى إلى كمال غيره فيوصي بالحق والصبر، وفي هذا دلالة على أن الفرد ليس وحدة كاملة في الجماعة بل هو جزء من وحدة، وأن الوحدة هي الجماعة كلها، وهي الجسد الذي إذا اشتكى عضو فيه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وكما يشين الفرد أن يكون ناقصًا كذلك يشينه أن يكون فرد غيره في الجماعة ناقصًا، فانظروا إلى هذه المبادئ السامية وانظروا إلى ما عليه حال المسلمين اليوم تبصروا أنه لا يوجد في جميع المبادئ التي اعتنقها الناس ما هو أشرف وأعلى من هذه المبادئ التي ترقى بالنفس الإنسانية إلى التجرد من الأنانية وإلى حب الخير للعباد كلهم، ومصداق هذا قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (متفق عليه)، ذلك الحب الذي تطلبه النجاة ويطلبه كمال الإيمان فهو حب لله وفي سبيل الله وفي الحديث الشريف: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن

يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار» (متفق عليه) .

وفي الحق أن العاقل ليألم أشد الألم من البيئة الفاسدة ويحرص أشد الحرص على إزالة الفساد، وزوالُ الفساد مزيل للألم وفيه شفاء للنفس الخيرة، فالتواصي بالحق والتواصي بالصبر نوع من العلاج للنفس الخيرة، وطريق من طرق استجلاب السعادة والهناء، والله المطلع على السرائر والحريص على سعادة النفوس الخيرة المؤمنة جعل طريق علاجها وشفائها وطريق سعادتها ركنًا من أركان النجاة.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)

نبين بعد هذا معنى الحق ومعنى الصبر.

أما الحق: فأصله الموافقة والمطابقة، والاعتقاد الحق هو الاعتقاد المطابق لما عليه الشيء في نفسه كالاعتقاد بأن الله واحد، وأنه عليم قدير، وأنه خلق الخلق، والاعتقاد بالأنبياء والكتب والملائكة والدار الآخرة، والاعتقاد بوجود مكة وأنها موطن الرسول الأمين، والاعتقاد بأن الصلاة مفروضة والحج واجب.

ويطلق الاعتقاد أيضًا في القول والفعل، فالقول المطابق للواقع حق والفعل الذي وقع حسبما يجب أن يقع في الوقت الذي يجب أن يقع فعل حق.

بعض ما يعتقد له وجود ذاتي وحقيقة ثابتة في نفسه، وبعض ما يعتقد ليس له وجود ذاتي ولم يكن وجوده إلا بإيجاب الشرع ووضعه، فحقيقة الصلاة لم توجد إلا بوضع الشارع ووجوبها لم يثبت إلا بإيجاب الشارع وكذلك صفاتها وهيئاتها، لكن الله ثابت بذاته وكذلك صفاته والعقيدة الحقة تشمل الأمرين معًا، فعقيدة وحدة الله حقة وعقيدة وجوب الصلاة حقة؛ لأن هناك حقيقة للوجوب ثبتت بإيجاب الشارع.

والصبر: أصله الإمساك في ضيق، تقول: صبرت الدابة إذا حبستها بلا علف، ثم أطلق على حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، وتختلف أسماء الصبر باختلاف مواقعه فحبس النفس عند المصيبة يسمى صبرًا، وضده الجزع، وحبس النفس عند القتال يسمى شجاعة وضدها الجبن، وحبس النفس عن الكلام يسمى كتمانًا، وفي الصبر عن المعاصي مشقة وفي الصبر على طاعة الله مشقة، والتكاليف كلها مشتملة على المشقة وإن كانت متفاوتة.

والصبر من الأخلاق الأصيلة الكريمة وهو أساس جميع الفضائل ولذلك قيل: إنه نصف الإيمان، وقد ذكره الله -سبحانه- أكثر من سبعين مرة في القرآن ووعد بالجزاء الأوفى عليه:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (الزمر: ١٠)

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٦)

وبعد، فهذه السورة الكريمة على قصرها لم تدع شيئًا من الخير والحكمة لم تشتمل عليه وكما قال الشافعي -رضي الله عنه-: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، والحث على الحق يستدعي معرفة الحق بطرقه الصحيحة، وفي ذلك حفز للهمم على طلب الحق ومعرفته وعلى طلب المعارف الصحيحة من وجهها وجعل الأعمال الصالحة مناطًا للنجاة يستدعي معرفة الأعمال الصالحة، وفي ذلك كله تبصرة وعبرة، وهذه هي مبادئ الإسلام، نسأل الله أن يلهم الناس الانتفاع بها.

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم أحدهما على الآخر، ليذكر كل واحد صاحبه بما يجب أن يكون عليه، والله المستعان، لا رب سواه، عليه نتوكل ومنه نستمد التوفيق.

الفهرس